

المنير الحسيني

أفكار ورؤى الفقيه المجدد
السيد فضل الله (رض)

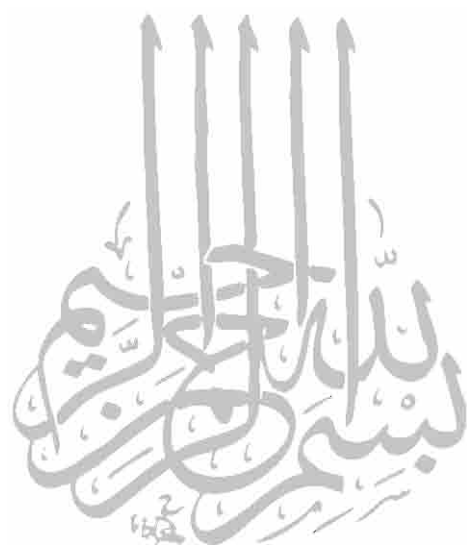
الشيخ علي حسن غلوم



المركز الإسلامي الشيعي
مجمع الإمامين الحسنين



المنبر الحسيني ..
أفكار ورؤى الفقيه المجدّد
السّيد فضل الله (قده)



المنبر الحسيني

أفكار ورؤى الفقية المجدد^ع
السيد فضل الله^ع (رض)

الشيخ علي حسن غلوم



المركز الإسلامي الشيعي
مجمع الإمامين الحسنين عليه السلام

الطبعة الثانية
١٤٤١هـ - ٢٠١٩م



المركز الإسلامي الثقافي

لبنان

حارة حريك - مجمع الإمامين الحسينين (عليه السلام)

هاتف: 00961 1 557000 - 00961 1 544402 - خليوي: 00961 3 565074

مدينة صور - الكورنيش البحري - سارية العلم اللبناني، بناية صبراوي

هاتف: 07 344290

الفروع: - النجف الأشرف - الحنافة - قرب مسجد الحنافة 07812326490

- بغداد: حي الجوادين - بداية شارع المحكمة 07709853254

- بابل: شارع 40 مجاور الخطوط الجوية العراقية 07818282238

- ذي قار: شارع بغداد - قرب بناية الضريبة 07810163360



Facebook: SayyedFadlullah

مكتبة العلامة المرجع السيد فضل الله العامة



Telegram

t.me/SayedFadlullah

البريد الإلكتروني

sayedfadlullah@gmail.com

info@fadlullahlibrary.com

www.sayedfadlullah.com

www.fadlullahlibrary.com

youtube/sayedfadlullah

S. Fadlullah



Google Play



App Store

المقدمة

«حياتي كلّها في خدمة الله وخدمة الإسلام وخدمة أهل البيت عليه السلام، لأنني أريد - أيّها الأحبّة - أن أقدم خطّ أهل البيت عليه السلام للعالم بطريقة حضاريّة لا بطريقة خرافيّة... أريد أن أقدم تراث أهل البيت عليه السلام وهو تراث الإسلام للغرب والشرق ليعرفوا أنّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام من أهل البيت هم الذين يصنعون الحضارة بعيداً عن كلّ الذين يركّزون على الخرافة والتخلّف والعصبية والحقّد والبغضاء».

وهكذا أراد المرجع السيّد فضل الله (رض) أن يقدّم الثورة الحسينيّة بصورتها المشرقة، وبإباء وعنفوان وعزّة وكرامة أبطالها من الحسين عليه السلام إلى أصحابه، إلى الطّفل الرضيع من أهل بيته... بعيداً عن الأكاذيب والخرافات والأساطير التي ألصقت زوراً بالمنبر الحسينيّ، ولذا، فإنّه (رضوان الله عليه) كان يُطلق الصّوت في المدى: «نحن بحاجة إلى خطباء، كما إلى علماء يعيشون عصرهم، لأنّهم إذا لم يعيشوا عصرهم، فإنّهم لن يفهموا ذهنيّة الجيل الذي يعيشون معه».

طوال عمره الشريف بقي السيّد (رض) قلقاً من أن يصغر بعض خطباء المنبر الحسينيّ عاشوراء، ويحبسوها في قمقم جهلهم الذي بات لا يخفى على شبابنا وأجيالنا ومتقّفيننا وكلّ الواعين في أمّتنا...

وحسناً فعل سماحة الشيخ علي حسن غلوم أحد علماء الكويت، بأن أبرز أفكار السيد الرئيسة حول المنبر الحسيني، ليبقى هذا المنبر صافياً كعين الشمس، وليبقى مشرقاً كما ثورة الحسين عليه السلام، ولتبقى ذكرى عاشوراء ذكراً فوّاحاً بشذى الشهادة وعبير البطولة وإضاءات الحق والعدل، وإنسانية المفاهيم والقضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية وما إلى هنالك التي تهّم الإنسان في بناء حياة يجد فيها ما يحفظ له إنسانيته وعزّة وجوده..

وكم كان (رضوان الله عليه) حريصاً على إبراز الذكرى الحسينية بصورتها الإسلامية لا بصورتها المذهبية، لأن صورتها الإسلامية هي عنوان أصالتها وبقاء استمرارها ووهج الحق فيها. وهذا ما سلّط عليه الضوء سماحة الشيخ (دام توفيقه) وقدمه للقارئ بعمق وموضوعية وعقلانية واضحة.

والله الموفق والمسدد

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمد الموسوي

محرم الحرام ١٤٣٣هـ

٢٠ (نوفمبر) ٢٠١١م



بين يدي البحث

كانت حركة المرجع الراحل العلامة السيد محمد حسين فضل الله (قدّس الله نفسه الزكية) تنطلق من إحساسه العميق بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق كلّ مسلم يعيش تحدّيات هذا الزمان في أبعادها المختلفة، وفي شدّة متغيراتها وتنوّع صُورها وعمق مرتكزاتها، وتقع على عاتقه هو على وجه التحديد من خلال الموقع - الذي كان يشعر ويصرّح في أكثر من مرّة - بأنّه يطلّ من خلاله على كلّ الواقع في العالم باعتباره المسؤول عن كلّ الحالة الإسلامية.. كانت حركته ذات أبعاد متعدّدة على المستوى الفكريّ والروحيّ والسياسيّ والثقافيّ والاجتماعيّ والتربويّ.

ومن هنا كان للخطاب الإعلامي المتعلّق بالنهضة الحسينيّة في فكره حيّزٌ واسع، إذ أولاه عناية خاصّة في الكثير من المناسبات، لاسيّما حين كان يرصد التعاطي القاصر لهذه النهضة أو الساذج أو الخاطئ في السّاحة الإسلامية عامّة - والساحة الموالية لمدرسة أهل البيت (عليه السلام) على وجه الخصوص - الأمر الذي كان يدفعه للحديث مرات ومرات حول حقيقة تلك النهضة في منطلقاتها ومفاهيمها ومعطياتها، وفي الكيفية الإيجابية للتعاطي الروحيّ والعقليّ والعاطفيّ والإعلاميّ معها بما يطلقها من قمم الماضي والتعصّب والمذهب إلى آفاق الحاضر والمستقبل، ورحابة الإسلام، وشموليّة المضامين الإنسانية.

وعلى الرغم من حساسيّة النقد في هذا الإطار عند الكثيرين - وإن كان النقد إيجابياً وبنّاءً ومتناغماً مع المعطيات الشرعية والواقعية - إلّا أنّ المفكّر الراحل لم يكن ليجامل في الأمر على حساب القضية التي كان يؤمن بأنّ من مسؤولياته أن يتفاعل معها بما يخدم الأهداف العامّة للإسلام، والخاصّة بالنهضة الحسينيّة، وإنّ كلّفه ذلك الكثير من المواقف السلبية والكلمات الجارحة التي كان يطلقها الآخرون الذين اختلفوا معه، أو حاربوه في مشاريعه الإصلاحية.

أهمية المجالس الحسينية

من نافلة القول الحديث عن أهمية ودور مجالس العزاء الحسيني في شهري محرم وصفر، بالإضافة إلى المجالس التي تُعقد خلال الأشهر التالية بصورة متفرقة، وضمن مناسبات مختلفة، سواء ما هو خاص بالرجال أو بالنساء أو بشريحة الشباب أو بالأطفال، أو المشترك بينهم.

فهذه المجالس بالإضافة إلى عراققتها تاريخياً كما تؤكد نصوص عديدة تعرض لها الباحثون في هذا الشأن، فإنّها قامت - وتقوم - بأدوار عديدة ذات أبعاد دينية وتثقيفية وسياسية واجتماعية وتربوية، كما أنّها تستقطب الجماهير بصورة يقلّ نظيرها، فهي تستقطب حتّى أولئك الذين قطعوا علاقتهم بالأجواء الدينية العامّة، فلا تجد لهم حضوراً في مسجد أو مركز إسلامي أو محاضرة دينية، بينما تجد لهم حضوراً فاعلاً في مجالس عاشوراء.. بل تجد من بينهم من قد قطع علاقته بالدين وشعائره إلى حدّ بعيد، إلّا أنّ حضوره الموسمي في شهر محرم لا يمكن له التنازل عنه مهما كانت الظروف.

أمّا الأدوار التي تنهض بها هذه المجالس فيمكن تلخيصها في نقاط:

- ١- تجديد الولاء لمدرسة الإسلام وفق منهج أهل البيت (عليه السلام).
- ٢- الزخم العاطفي الكبير الذي ترفده من خلال تجديد استعراض بعض أحداث النهضة الحسينية وما سبقها ولحقها من ظلمات وأحداث مأساوية تجاه آل النبي (ص) وشيعتهم وأنصارهم.

٣- الإمداد الفكري الديني النابع من القرآن والسُّنة واجتهاد العلماء في المجالات الدينية المختلفة، فهذه المجالس التي أطلقها أئمة أهل البيت عليهم السلام تمثل مجالس الدعوة إلى الإسلام بأكمله.

٤- التنشيف الاجتماعي والتربوي والسياسي والعلمي من منطلق إسلامي وإيماني ومعااصر.

٥- تقديم النماذج الحياتية القيّمة من خلال استعراض سيرة النبي صلى الله عليه وآله، الأمر الذي يدفع نحو المحاكاة والتقليد الإيجابيين، انطلاقاً من النصوص الدينية الداعية لذلك، ولنوعية علاقة الفرد الشيعي بالنبي صلى الله عليه وآله والقائمة على أسس المودة، إذ إنّ من الطبيعي أن يسعى المحبّ في التقرب إلى محبوبه، وغالباً ما يتحقّق ذلك بالسير على نهجه والاقتداء بأعماله.

٦- الدور السياسي الميداني المتعدّد الأنماط وفق معطيات الساحة ومستجدّات الأحداث والتحديات.

أ - توضّحات تحمّلنا المسؤولية

وقد قدّم العديد من الخطباء الحسينيين - طوال القرون الماضية وفي العصر الحديث - التوضّحات الجسام في طريق الإصرار على إقامة هذه المجالس المفعمّة بالعطاء الإيماني والفكري والروحي والقيمي المتميّز، فاستشهد منهم من استشهد، واعتُقل من اعتُقل، وهُجّر من هُجّر.. وهذا في حدّ ذاته يفرض على كلّ الأطراف المعنية من خطباء وأصحاب مجالس حسينية ورواد تلك المجالس أن يحافظوا على هذا المنبر الديني الإعلامي المنقطع النظير، بقاءً وامتداداً وتطويراً، كما يجعل مسؤوليتهم مضاعفة تجاه ما يقدّمه المنبر الحسيني للمجتمعات المختلفة وفق متغيّرات ظروفها وخصائصها، وللشرائح المختلفة في المجتمع الواحد.

ب - البُعد الحضاري للمجالس

وقد تحدّث المرجع الراحل والمفكر الإسلامي السيد محمد حسين فضل الله (قدّس الله نفسه الزكيّة) عن بعض ما يُثار من ملاحظات سلبية حول الإصرار على إحياء هذه المجالس فقال: «... إنني أتصوّر أنّ مسألة إحياء ذكريات التاريخ ليست أمراً غير إنساني أو غير حضاري، فإننا نجد العالم كلّهُ، مع اختلاف اتجاهاته، يحتفل في كلّ سنة بذكرى، قد تتصل بانتصار وطني، أو قومي، في معركة ترقى إلى مئات السنين، أو لمأساة من المآسي التي قد تكون نتيجة وضعٍ صراعيٍّ أو سياسيٍّ معيّن، ممّا يرقى إلى عشرات أو مئات السنين أيضاً».

وكذلك، فإنّنا نجد أنّ الحاضر في كلّ مواقفه لا يعيش انفصالاً عن التاريخ، بل نجد أنّ الإنسان الذي يحاول أن يؤكّد نفسه، وأن يؤصّل مرحلته، ويركّز خطواته في الاتجاه الذي يريده في تقدّمه وتطوره، لا يزال يشعر بأنّ هناك في التاريخ نقاطاً مضيئة، يبقى استحضارها حاجةً لكلّ مرحلة من المراحل التي يعيش فيها نوع معيّن من الظلام، أو أنّ فيها درساً لا يرتبط بمرحلة معيّنة، بل يرتبط بالحياة كلّها، ما يجعله يدرس الماضي والحاضر والمستقبل، وإضافةً لذلك فقد تستدعي الحاجة إلى نوع من أنواع الإثارة التي لا يجد الإنسان عناصرها الحيويّة في الحاضر، فيحاول أن يجتذبها من خلال التاريخ.

وفي المقابل فإنّ القرآن الكريم عندما يتحدّث عن التاريخ فإنّه ينظر إليه بطريقتين:

الطريقة الأولى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، بأنّ دور القصة التاريخية هو دور العبرة، التي تمثّل الدرس الذي يمكن أن يأخذه العاقلون في ما يمكن لهم استيعاؤه من التاريخ لمصلحة الحاضر.

والطريقة الثانية: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]، وهذه الآية تركّز أنّ التاريخ ليس مسؤولية الجيل الحاضر، وإنّما هو مسؤولية الذين صنعوه، ولذلك فعليّنا أن لا نفرّض التاريخ على أنفسنا كما لو كنّا نحمل مسؤوليّته، ونحمل الآخرين مسؤوليّته، فيما هو التوزيع بين فريق قد يرتبط بجانب من التاريخ، وفريق يرتبط بجانب آخر، لأنّه لا معنى لأن أحمل مسؤولية تاريخ لم أصنعه، أو أحمل الآخرين مسؤولية تاريخ لم يصنعه، لأن مسألة آبائنا وأجدادنا هي مسألتهم هم، وإنّما القضية أنّنا نُسأل عن صنع تاريخنا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ - من خير أو شر - وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ - من خير أو شر - وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلا تُشغّلوا أنفسكم بالحديث عن مسؤوليّتكم أمام هذا التاريخ^(١).

ج - قضية الحسين عليه السلام للجميع

وانطلاقاً من الفكرة السابقة تعرّض المرجع الراحل لخطأ اعتبار هذه المجالس وكأنّها موجهة من طائفة نحو أخرى تحملها من خلالها مسؤوليّة ما جرى على أرض كربلاء، وتستثير من خلالها الضغائن فقال: «الملاحظة الثانية: إنّنا نستطيع أن نستوحي من هذا أنّنا لا نحمل الشيعة وزر بعض السلبات التي عاشت في خلاف السنّة والشيعة في الماضي، أو نحمل السنّة الموجودين خلافاً ما جرى على الشيعة سلباً من السابقين، بل إنّ الشيعة والسنّة الآن يعيشون عصراً واحداً ومرحلة واحدة، وتبقى هناك وُجّهات نظر في فهم الإسلام، أو في حركيّة الإسلام، أو في تقديس هذا، وتقديس ذاك، تبقى هذه وُجّهات نظر يمكن أن نتحاور حولها، أما المعطيات التاريخية فهي ليست مسؤوليّاتنا، ولا يجوز أن نتراشق مع بعضنا البعض على هذا الأساس.

(١) جانب من المقابلة التي أجرتها جريدة السفير اللبنانية مع المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله في ٢٧/٥/١٩٩٦ ومنقولة عن موقع بينات تحت عنوان: إشارات جوهريّة حول إحياء عاشوراء.

من خلال ذلك كله نقول: إن قضية الإمام الحسين عليه السلام هي من القضايا التي تتصل بأكثر من بُعد؛ فعندما ندرس الحسين عليه السلام، فإننا ندرس الإنسان الذي يمثل القيمة الإنسانية الروحية الرائعة، التي انفتحت على الله كأوسع ما هو الانفتاح، وعاشت عمق الإسلام كأعمق ما يكون العمق، وانطلقت مع الناس في انفتاح ومحبة، وتحركت في خط القضايا المتصلة بالجانب الإسلامي في حركيته في الواقع، بينما يمثل يزيد في صورته التاريخية، الإنسان الفاسق، الذي لا يملك أي التزام في المحرمات الشرعية كشرب الخمر، وقتل النفس المحترمة وما إلى ذلك، ولا يملك أية قيمة روحية أو أخلاقية أو إنسانية في حكمه، في الوقت الذي لا يملك فيه أية كفاءة، بغض النظر عما هو الخلاف في طبيعة الشرعية بين السنة وبين الشيعة. فهناك شخصيتان: الشخصية المثالية، شخصية الأريحية، وشخصية المنفعة كما يعبر عباس محمود العقاد في كتابه (أبو الشهداء).

ثم نجد أن المسألة تتصل بالواقع الإسلامي العام، فهناك نوع من أنواع الانحراف الذي فرض على هذا الواقع الإسلامي، من خلال مجموعة عوامل تبدأ بتلك الفوضى التي جاءت نتيجة الصراعات الداخلية، وصولاً إلى ابتعاد الواقع الإسلامي عن خط الخلافة وتحوله إلى ملك عضوض، مروراً بانطلاق الكثيرين من الرواة والمحدثين ليصنعوا لهذا رواية في فضل عنوان معين، أو شخص معين، ويصنعون لذلك مثله.. الأمر الذي أدى إلى تبدل في المفاهيم من ناحية التصور، رافقه انحراف في السلوك، ما أدى إلى ظهور صورة معينة من صور المجتمع الإسلامي آنذاك أثirt الكثير من التساؤلات عن مدى انسجامها مع الإسلام، وهو ما نستوحيه من المقارنة بين تلك المرحلة وبين الصورة المشرقة للإسلام وحكمه»^(٢).

(٢) المصدر السابق.

وقال: «أعتقد أننا عندما ندخل مع الخطّ الإسلاميّ السّني، فإنّنا لا نعتقد أنّ قصّة بني أميّة تمثّل أيّ مقدّس سنّي، فقد يختلف رأي المسلمين السّنة في بني أميّة مقارناً بالرأي الشيعيّ، ولكنّنا نعتقد أنّ المسألة عندما تبتعد عن قضية الخلافة التي تمثّل المقدّس الإيجابي هنا والسّلبّي هناك، فإنّ بقيّة التاريخ الإسلامي يخضع لأيّ اجتهاد في الحكم عليه إيجابياً أو سلبياً، من دون أن يمسّ أيّ مقدّس إسلامي، ولذلك فنحن لا نعتبر أن يزيد يمثّل قيمة إسلاميّة سنيّة، ليعتبر رفضه ضدّ القيمة.

ومن هنا، فإنّ إثارة الذكرى لا تمثّل سلبية إسلامية، ولا سلبية إنسانيّة حضاريّة، نعم يبقى أنّ بعض الذين يثيرون عاشوراء ربّما يُخطئون ويتحرّكون بطريقة انفعالية قد يثيرون فيها الحساسيات، وهذا ما نرفضه ونحاربه، ونعمل على إصلاحه ما أمكننا ذلك»^(٢).

د - البكاء أمر طبيعي

وأما البكاء في هذه المجالس - الذي تصوّره البعض أمراً سلبياً - فقد اعتبره السيّد رَحِمَهُ اللهُ تصرّفاً تلقائياً فطرياً ناتجاً عن تفاعل المشاعر الإنسانيّة مع الوصف التفصيليّ لمجريات أحداث عاشوراء بمآسيها، ولا يشكّل - ما دام ضمن هذا الإطار - تصرّفاً غير حضاري، قال: «أمّا المسألة البكائيّة فإنّها لا تمثّل منطقاً غير حضاريّ لأنها تتّصل بالعاطفة الإنسانيّة التي تستثيرها المأساة التي تصيب حياة إنسان تحبّه أو تعظمه، لا سيّما إذا كانت متمثّلة في المجازر الوحشيّة ضدّ الإنسان والطفولة وبشكل يقشعر له الوجدان. إنّ اللاّحضارية تتمثّل في القسوة الشعوريّة وفي اللامبالاة والبرودة العاطفيّة أمام المأساة، وإذا لم ينفعل الإنسان بمأساة التاريخ فإنّه لا ينفعل بمأساة الحاضر ممّا يؤدّي إلى سلبية

(٢) المصدر السابق.

في علاقته بالواقع.. ونحن لا نتصور أنّ الشيعة يعيشون في حالة طوارئ بكائية، بل إنهم يفتحون على الحسين عليه السلام الذي يحبونه ويحبون أهل بيته وأصحابه انطلاقاً من محبتهم لما يمثلونه من معنى الرسالة فيتمثلون فيه الثورة والعبرة، كما يتمثلون بالمأساة التي تستدرّ دموعهم في مضمونها الإنساني المعنوي كما قال ذلك الشاعر:

«تبكيك عيني لا لأجل مثوبة

لكنما عيني لأجلك باكية»^(٤).

هـ - البعد الشرعي للمجالس

وفي التأكيد على الامتداد الشرعي لإقامة المجالس الحسينية قال (رحمه الله): «هناك أحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تشجّع وتدعو إلى إقامة هذه المجالس، ولعلهم هم الذين كانوا يقيمونها، من أجل إبقاء الذكرى حيّة، لإحياء الخطّ الإسلاميّ الأصيل، وهذا ما نلاحظه في بعض الأحاديث التي تقول: «أحيوا أمرنا رحم الله من أحيّا أمرنا»، في الإشارة إلى هذه المجالس، ونحن نعلم أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام ليس لهم أمر خاص بعيداً عن الإسلام، بل إنّ أمرهم هو الإسلام كله»^(٥).

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق.



النقد البناء

يُقال إنّ من طبيعة الإنسان الشرقيّ الإفراط في الحساسية من النقد، وإذا أضفنا إلى ذلك حساسيّة الدائرة التي يرتبط بها النقد، كأن يكون نقداً لشخصيّة يقدّسها الناس - وإن لم تكن مقدّسة في واقعها - أو لأمر يرتبط به الناس عاطفياً لمَدَيَات بعيدة، أو لعنوان خصّسه الناس بالتعالى على أيّة إشكالات يمكن أن تعتريه، لذا كان من الضروريّ التنويه إلى أنّ نقد المجالس الحسينيّة في صورتها الحاليّة لا يعني بحال محاولة إضعاف هذه المجالس أو توهينها، بل هو نقد ضروري في المسيرة التي يفترض بها أن تكون تكامليّة لأيّ مشروع دينيّ وثقافيّ وإعلاميّ وتربويّ واجتماعيّ، فكيف إذا كان هذا المشروع هو مجالس العزاء الحسينيّ الذي يتوافد عليه عشرات الملايين في أنحاء العالم طوال العام ومن مختلف المشارب والفئات، حتّى من قبل أولئك الذي لا تكون لهم علاقة ملتزمة بالدين والشريعة، إلا أنّ ارتباطهم التاريخيّ والعاطفيّ بالنبيّ ﷺ وآله ﷺ يدفعهم بقوة نحوها.

يُضاف إلى ذلك أنّ شريحة من جمهور هذه المجالس بات يتحدّث علناً في إطار نقد بعض ما يُقال ويجري فيها، بل إنّ البعض فضّل الانسحاب نهائياً ومقاطعتها، علاوةً على الشريحة التي سجّلت ملاحظاتها على هذه المجالس فكانت منطلقاً لابتعادها عن مدرسة أهل البيت ﷺ بصورة تامة.. ناهيك عن تلك التي ترصد وتترصد لكلّ زلّة لتسجّل نقطة هنا ونقطة هناك على ما

يمارس ضمن أجواء مدرسة أهل البيت عليه السلام بعنوان الشعائر، وعلى ما يقال على المنابر بعنوان عقيدة وفكر هذه المدرسة.

ثم إنَّ هناك مسؤوليّة شرعيّة واعتباريّة ملقاة على عاتق كلّ مسلم في أن يعي ما يُقال، وأن يستمع عن تبصّر وتفكّر، لأنّه مسؤول عن تبعات ما يأخذه عن الآخرين كما في الحديث عن الإمام محمد الجواد عليه السلام: «من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبّده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبّد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبّد الشيطان».

أ- مفهوم النقد

وفي كتابه (مفاهيم إسلامية عامّة) طرح المرجع الراحل السيّد فضل الله قده بحثاً مفصّلاً حول النقد في مفهومه وفي رأي الإسلام حوله، وفي تطبيقاته العمليّة، وارتأيت أن أقدم مختصراً عمّا ذكره بما يخدم هدف هذا الموضوع. قال: «للقيد في كتب اللّغة عدّة معان، ولكن أبرزها معنيان يرتبطان بحديثنا هذا:

١- التمييز بين الجيد والردّيء من الدراهم والدنانير، فيقال: نقدت الدراهم وانتقدتها إذا أخرجت المزيف منها.

٢- العيب والثلم والتجريح، فيقال: نقدت رأسه بإصبعي إذا ضربته، ويذكرون شاهداً عليه حديث أبي الدرداء «إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك» أي: إن عبتهم أو اغتبتهم قابلوك بمثله.

ولعلّ المعنى الثاني، هو المعروف الشائع من هذه الكلمة، فقد استعمل النقد في معنى تعقّب الأدباء والفنّيين والعلماء والدلالة على أخطائهم وإداعتها قصد التشهير أو التعليم، وشاع هذا المعنى في عصرنا هذا وصارت كلمة النقد إذا أُطلِقت فهم منها الثلم ونشر العيوب والمآخذ.

ولهذا اعتُبر النقد في كثير من المجتمعات مظهراً من مظاهر العداوة والبغضاء وسبباً من سبب الإهانة والإيذاء، لأنّه يمثل البحث عن عيوب الشخص من أجل إظهارها للناس كوسيلة من وسائل التحقير والتشهير.

أما المعنى اللّغوي الأول، فلعلّه أنسب المعاني وأليقها بالمراد من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية، وفي اصطلاح أكثر المتقدّمين من ناحية أخرى فإنّ فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحُكم.

وإذا ما وقفنا عند ما يقوله الثّقات من النقاد رأيانهم لا يجاوزون هذه المعاني في حدّ النقد وفي ذكر خواصه ووظيفته. فالنقد: دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابه لها أو المقابلة.. ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها.. يجري هذا في الحسيّات والمعنويّات، وفي العلوم والفنون وفي كلّ شيء متّصل بالحياة.

ونحن هنا.. عندما نريد الحديث عن النقد والنقد الذاتي في الإسلام.. لا نريد أن نخصّ به معنى واحداً من هذين المعنيين، فإنّ لنا موقفاً مع كلّ منهما في شريعة الإسلام، لأنّ كلاهما يعبر عن مظهر حيّ من مظاهر السلوك الإنساني في الحياة.

فهناك الذين يعتبرون عملية النقد وسيلة من وسائل التشهير والتحقير والتخريب والتهديم، كنتيجة طبيعية لحالة الحقد والبغضاء التي يعيشها الناقد إزاء الآخرين، وهناك الذين يعتبرون النقد عملية تقييم للموقف، وتصحيح للسلوك، من أجل وضع كلّ شيء في موضعه، وإعطاء كلّ عمل قيمته، وتمييز الخطأ من الصواب، والصحيح من الفاسد.. انطلاقاً من الرغبة الذاتية في البناء والتركيز واستقامة الخطى في طريق الحقّ.

وإذا كانت الحياة تحتضن كلا هذين النموذجين، فلا بدّ لنا من أن نقف

معها لتعرّف موقع أقدامنا في الطريق عندما نريد السير مع كلّ منهما فيما يخطّط وفيما يريد، لتعرف كيف نحفظ خطانا من الانحراف في غير طريق الله.

بـ النقد الذاتي في الإسلام

١- ما هو النقد الذاتي؟

النقد الذاتي: هو نقد الفرد نفسه، أو نقد الأمة أو بعض قطاعاتها الاجتماعية نفسها.. وذلك، بالتحليل العميق الواعي، من أجل تحديد مواطن النقص، وأسباب العجز والمؤثرات المؤدّية إلى وجود العيوب والنقائص.

ويتمثّل ذلك في الفرد، في تحليل الدوافع الذاتيّة للعمل من جهة، وتحديد المؤثرات الخارجيّة التي شاركت في اتّخاذ هذا الموقف أو ذاك. فقد يستسلم الإنسان لموقف تأييد لبعض الأشخاص، أو رفض لبعض آخر، وقد يكون هذا الموقف مُحاطاً ببعض الجوانب الخاصّة من جهة، وبعض الجوانب العامّة من جهة أخرى.

فإذا أراد أن يعرف قيمة عمله من الداخل فبإمكانه تحليل الدوافع التي شاركت في اندفاعه للعمل، فقد يكتشف الصفة الخاصّة، وهو يتخيّل انطلاقه من الصفة العامّة، وقد يكون هذا الموقف واقعاً تحت رحمة مؤثرات عديدة، ولا يعرف الإنسان السبب الأعظم في التأثير، فيكتشفه بعد التحليل، ليكتشف طبيعة المؤثرات الخارجية التي تضغط على إرادته.

مثل ذلك في الأمة، فبتحليل المواقف الكبيرة التي تقفها من الأحداث، أو الأحداث التي تقتحم حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتؤدّي بها إلى تقدّم أو تأخّر، وتقودها إلى الهزيمة أو الانتصار.. فقد تختلط

المؤثرات، وتتشابك الأسباب.. ويأتي دور النقد الذاتي الذي يحلّل ذلك كلّ من خلال تحليل الأفراد المسؤولين أعمالهم، وتحديد المؤثرات العامّة والخاصّة، وأسباب الريح والخسارة، ومواطن النجاح والفشل.. وللوصول إلى معرفة أعمق، وفهم واسع لطبيعة الموقف وأبعاده..

٢- حاجتنا إلى النقد الذاتي

تنبع حاجتنا إلى النقد الذاتي من حاجتنا إلى فهم أنفسنا في أبعادها الداخليّة والخارجيّة، وإلى فهم واقعنا بكلّ ما يشتمل عليه من ظواهر وحركات، فإنّ الإنسان الذي لا يعرف نفسه لا يملك معرفة وجهة حياته، لأنّه لا يدري من أين تنطلق خطاه، وإلى أين يسير.. فهل تنطلق من قاعدة المنفعة الذاتية، أو من واقع الرسالة العامّة؟ وهل تتّجه إلى القمة أو تنحدر إلى الحضيض؟

فقد يختلط الأمر على الإنسان، فيُخيّل إليه أنّه يسير على أساس الحقّ في لحظات الانفعال المرتجل، ولكنّه إذا فتّش نفسه، اكتشف أنّه يسير على أساس ذاتيّ محض، لا يتّصل بالحق من قريب أو بعيد، لأنّ الدوافع الحقيقيّة للحركة لا تطفو على السطح، بل تستقرّ في أعماق النفس ودهاليز الشعور، بشكل لا شعوري، فلا تظهر إلا للبحث العميق الذي يفتّش ويحلّل ويحاكم.. وتبقى الدوافع تعطي للعمل طابعه الظاهريّ الذي يخدع الأعين التي يبهرها السراب.

وهكذا قد نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام الواقع الذي نتخبّط فيه ونعيش في أجوائه سواء أكان واقعاً دينيّاً أو سياسيّاً أو اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً، فقد يخضع فهم هذا الواقع لتفسيرات سطحيّة مرتجلة ناشئة عن النظرة الارتجالية التي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أوّل نظرة، دون أن تكلف نفسها عناء البحث عمّا وراء ذلك من أسباب، أو تتعرّف إلى الجوانب البعيدة التي ساهمت في ولادة هذه الظاهرة أو نشوء هذا الواقع.

أما خطر ذلك، فيتمثل في تشويه الصورة الحقيقية للمشكلة في ظل الواقع، مما يسبب بُعداً عنها وعن الحلول العملية الصحيحة لها.. فربما يكون الدواء في جانب، وتكون المعالجة لجانب آخر، وربما ترتبط المشكلة بأكثر من جهة، ويكون الحلّ منطلقاً من جهة واحدة.. وهكذا تضع الخطوط التي يسير عليها الإنسان في الوصول إلى فهم الواقع أو حلّ مشكلته.

ولن يختلف الأمر في هذا الموضوع بين أن يكون الموقف على مستوى واقع الفرد، وبين أن يكون على مستوى واقع المجتمع أو الأمة بشكل عام، لأنّ كلاهما يركز على أساس طبيعة الفهم الحقيقي الذي يشارك في علاج الواقع، أو الفهم الخاطئ الذي يساهم في تعقيده وإرباكه من جديد...

وربما تتمثل الحاجة إلى النقد الذاتي في دراسة بعض الأوضاع التي درجنا على ممارستها في شؤون الدين والدنيا، انطلاقاً من عادات قديمة، أو تقاليد مستحكمة، أو نظرة خاطئة تجد في هذه الأوضاع الشاذة ضماناً لقيم معينة، أو مبادئ كبيرة، وترى أنّ زوال هذه الأوضاع يشكّل خطراً على تلك القيم والمبادئ، كما نراها في الكثيرين الذين يصرون على إبقاء المظاهر المختلفة لبعض الممارسات التي اصطبغت بصبغة دينية أو اجتماعية، بحجة أنّها هي التي تحفظ للمجتمع عقيدته أو توازنه أو ارتباطه بالقيم، فإذا فقدناها فقدنا هذه الضوابط التي يحتاجها المجتمع في حياته الدينية والاجتماعية.

ربما نحتاج إلى النقد الذاتي - في هذه الحالة - لنعرف كيف نشأت هذه الأوضاع، وكيف انقطعت جذورها لتفرض وجودها على الدين والمجتمع، ثم لندرس تأثيرها العكسي على الواقع الديني أو الاجتماعي بما تمثّله من مظاهر التخلف.. ثم لتعرّف - من خلال فهمنا لواقعنا المعاصر - كيف يمكننا الحصول على ضوابط جديدة بعيدة عن التخلف، لتحفظ للمجتمع عقيدته

وتوازنه وتساهم في التوفيق بين طبيعة الوسيلة وبين طبيعة الغاية في مستوى الممارسة.

ج- الأسلوب الإسلامي

عندما نقرب من النصوص الدينية التي عالجت موضوع النقد الذاتي، ودعت إليه، نلاحظ أنها بدأت في إيجاد الجو الداخلي له. ولعل ذلك يُعتبر من الأمور الضرورية في هذا المجال، لأن من غير الطبيعي أن يمارس الإنسان عملية النقد في الأجواء الذاتية التي يشعر معها بالكمال النفسي الذي يتردد على النقص، ويعلو على النقد.

وعلى هذا الأساس، جاءت الآيات الكريمة التي توحى للإنسان بأنه ليس فوق مستوى الشبهات، فهناك مواطن ضعف كثيرة تعيش في داخل نفسه وتقتحم عليه حياته.. وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة في سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

فقد نستطيع أن نفهم من هاتين الآيتين أن الإسلام لا يوافق على منح النفس الحكم بالبراءة من كل سوء، مادامت النوازع الداخلية تثير في الإنسان معاني السوء والشر والضلال، ومادام الإنسان يستجيب لها في بعض الحالات، فكيف يمكن له أن يزكّيها ويدّعي لها العصمة من كل نقص والسلامة من كل سوء.

وقد حاولت بعض الآيات أن تشير إلى بعض مواطن الضعف في الإنسان بشكل صريح من أجل أن يلتفت الإنسان إلى ذلك فيحاول تحليل بقية مواقفه وأعماله على ضوء ذلك ويعمل على محاكمتها في هذا الاتجاه، وذلك كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ

مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» [الأنبياء: ٣٧]، وقوله تعالى: «وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» [الإسراء: ١١]، وقوله سبحانه: «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا» [النساء: ٢٨].

ثم انطلقت الآية الكريمة لتواجه الإنسان بمسؤوليته في أعماله أمام الله سواء أكان العمل صغيراً أم كبيراً، لتثير في نفسه الشعور العميق بالحاجة إلى القيام بدور المحاسبة الدقيقة التي تفصل بين العمل الصالح وبين العمل غير الصالح.

إقرأ الآيات التالية: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» [النحل: ١١١]. «وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» [الصافات: ٢٤]، «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩].

ثم تنطلق الدعوة إلى النقد والتأمل والتفكير فيما عمل الإنسان، وفيما قدم، لإجراء كشف دقيق على جميع أعماله وأقواله في الدنيا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [الحشر: ١٨].

إن هذه الآيات تحاول أن تهَيِّئَ الجوَّ النفسي للإنسان للقيام بهذا الدور تجاه نفسه، ليعرف كيف يواجه الله بصدق وإيمان. وعندما تقترب من النصوص الدينية في نطاق الحديث النبوي الشريف، وأحاديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، نجد الدعوة إلى المحاسبة والنقد الذاتي، واضحة مؤكدة. ففي الحديث النبوي الشريف: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا وزنوها قبل أن توزنوا». وفي حديث نبوي آخر، في وصيته المأثورة عنه لأبي ذر: «يا أبا ذر، لا يكون الرجل من المتقين حتى يُحاسِبَ نفسه أشدَّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين

مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلالٍ أو من حرام؟^(٦).

وقد نجد في الأدعية الكثيرة التي وردتنا في التراث الإسلامي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) نماذج حيّة من أساليب النقد الذاتي يعتمد على تحليل الموقف والظواهر من أجل الوصول إلى الأسباب التي شاركت في حدوثها، أو الجوانب التي ارتكزت عليها، أو الآفاق التي تعيش فيها. كلّ ذلك بطريقة روحية واعية يقف فيها الإنسان بين يدي الله، ليكتشف نفسه في أبعادها الخفية والظاهرة.

ولعلّ من أوضح هذه النماذج الفقرات التالية في دعاء أبي حمزة الثمالي الذي يُقرأ في السّحر في شهر رمضان: «اللّهم إِنِّي كُلَّمَا قَلْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ وَتَعَبَّأْتُ وَقُمْتُ لِلصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَنَاجَيْتُكَ، أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نَعَاساً إِذَا أَنَا صَلَّيْتُ وَسَلَبْتَنِي مَنَاجَاتِكَ إِذَا أَنَا نَاجَيْتُكَ».

وفي نهاية المطاف، نجد أننا نقف وجهاً لوجه أمام قضية النقد على جميع ألوانه وأقسامه، لنواجه الموقف الإسلامي الذي يدعونا إلى السير به في نطاقه الذي أراده الله، وهو الجانب الذي لا يستهدف الهدم لمجرد الهدم، والتخريب من أجل التخريب، بل يستهدف البناء والإصلاح والتقييم وإعطاء الواقع صفته الواقعيّة دون زيادة ولا نقصان.

ثم نلتفت إلى ذواتنا وأوضاعنا العامّة والخاصة، لنعيد النظر فيها على أساس النقد الذاتي الذي يحلّل للنفس دوافعها وأعمالها، ويفتّش في الظواهر والأوضاع عن أسبابها وأبعادها، نلتقي بالحقيقة الخالصة دون لفٍّ أو دوران، ولنصل في النهاية إلى شاطئ الأمان حيث يلتقي الإنسان بالحق والخير والإيمان بين يدي الله^(٧).

(٦) الكليني: الكافي ج ٦ ص ٤٣٤ ح ٢٤.

(٧) محمد حسين فضل الله: مفاهيم إسلامية عامة، ص ١٧٧-٢١٩ مع الاختصار.

د- النقد بين الإفراط والتفريط

وقد تحدّث العلامة فضل الله حول ضرورة نقد التراث الإسلامي الاجتهادي بصورة عامة، وهذا الحديث وإن كان أوسع دائرة عمّا نبحت فيه، إلّا أنّ الخطوط فيهما واحدة. ففي معرض جوابه على سؤال وُجّه إليه: «ما رأيكم في التراث من حيث قيمته؟ وهل يحقّ لأحد مصادرة التراث؟.. وفي تقديركم، ماذا نأخذ وماذا نترك؟» قال: «هناك اتجاهان متطرّفان في هذه المسألة، فهناك من يدعو إلى مصادرة هذا التراث وإهماله كلياً، باعتباره معطلاً لحركة نموّنا وتقدّمنا الفكري، لأنّه يجعلنا مشدودين إلى الفكر الماضي وأسلوبه وآفاقه، بحيث يخلق لنا شخصية تاريخية، تنظر إلى الحاضر بعين الماضي، وتعتبر التاريخ أساساً لكلّ النظرة العامة للأحداث والمتغيرات، وبذلك يضع التراث شخصيتنا في قالب جامد، تحاصرنا فيه كلّ أفكاره، وكلّ قواعده، وكلّ أوضاعه وأساليبه.

ولذلك، فإنّ هؤلاء يقولون إنّ علينا أن ننطلق إلى جوّ الحداثة الذي يفتح على تطوّرات العصر، لينشأ لدينا فكر جديد ينطلق من المعاناة الفكرية المعاصرة وينشأ عندها أسلوب جديد في ما استحدثه التقدّم الفكري في دائرة الأساليب. وهكذا تُولد لدينا شخصية جديدة تستند إلى الحداثة في قاعدتها الفكرية وفي تطلّعاتها الروحية، وتحاول التعامل مع العصر من خلال خصائص هذا العصر، أو مواكبة حركة التطوّر في العالم.

وفي ضوء ذلك، يرى هؤلاء أنّ التراث هو فكر الماضين، الذين عاشوا خصائصهم الفكرية وأخلصوا لها. وهو ما يستدعي أن نوّلد نتاجاً جديداً لفكرنا، من خلال ما نعيشه في عصرنا.

في المقابل ثمة رأي آخر متطرّف يدعو إلى الاستغراق في التراث، وذلك استناداً إلى أنّ الذين تقدّمونا من علماء ومفكرين وفلاسفة هم أقرب إلى

الحقيقة، باعتبار أنهم أقرب إلى مصادرها ومنابعها في الرموز الروحية والفكرية، التي كانت تجسّد لنا الحقيقة، ولا سيّما الحقيقة الإسلامية.

وهكذا نجد أنّ هذا الاتجاه يقول: إنّهُ كلّما كان الصحابة أو العلماء أو المفكّرون أقرب إلى العصر الأوّل للإسلام أو العصر الثاني للإسلام، الذي عاش فيه الأئمّة (عليهم السلام)، كلّما كانوا أقرب إلى الحقيقة. ولذلك فإنّ علينا أن ننفتح على التراث، وأن ننظر إلى الواقع من خلال المفاهيم التي يؤكّدها هذا التراث، سواء في نظراته الفقهية أو الكلامية أو الفلسفية أو السياسية أو الاجتماعية.

وبناءً على ما تقدّم، يرفض هذا الاتجاه كلّ ما جاءت به المعاصرة والحداثة من أفكار وأساليب، لأنّها انطلقت من مواقع كافرة، تعتبر المادّة أساساً وقاعدة فكرية، وتتحرك في مفاهيم الضلال التي تُغفل دور الحقائق الدينية، ولا سيّما الإسلامية، وذلك لانتمائها إلى العلمانية، ما يتطلّب أن يحكم الماضي الحاضر. أمّا الفكرة التي يحملها هذا الاتجاه فهي: (ما ترك الأوّل للآخر من شيء) في مقابل من يقول (كم ترك الأوّل للآخر؟).

إنّنا عندما نواجه هذه المسألة بطريقة علمية واقعية، فإنّنا لا نقف مع الذين يهملون التراث بالكلية، كما لسنا مع الذين يؤكّدون أنّ التراث هو كلّ شيء، بحيث يقف التقدّم عنده.

فتنحّن ننظر إلى التراث على أساس أنّه يمثّل الخطوط الفكرية المتنوّعة في قواعدها وأساليبها ومضمونها، من خلال اجتهادات الذين حرّكوها، سواء كان ذلك في المجال الكلامي أو الفقهّي أو الفلسفيّ أو السياسيّ أو في المجالات الأدبية والفنية المتنوّعة... إنّهُ جُهد الآخرين الذين عاشوا في الماضي، وجُهد الآخرين لا يمثّل الحقيقة إلا من خلال قناعاتهم، في ما يرونه.

إنّنا كمسلمين نرى الحقيقة في كتاب الله، من خلال أنّه النصّ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ

الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» [فصلت: ٤٢]، فليس هناك شك في أنّ القرآن كتاب الله، ولكن كلمات القرآن تبقى خاضعة لاجتهاد المفسرين والعلماء، الأمر الذي لا يسمح لنا اعتبار ما اجتهد به العلماء وما فسّر به المفسرون القرآن، أنّه يمثل الحقيقة الكاملة، فقد نستطيع أن نكتشف كثيراً من الأخطاء في هذا التراث، كما اكتشف الذين عاشوا في داخل حركة هذا التراث في الماضي أخطاء بعضهم البعض.

وهكذا، فإنّنا لا نستطيع أن نرى الأفكار التي انطلقت من خلال الاجتهاد في أحاديث النبي ﷺ أنّها تمثل الحقيقة، فهناك مدخلان لمعالجة مسألة السُّنة النبويّة الشريفة، المدخل الأول يتّصل بجهة صدور، هل هي من النبي ﷺ؟ أمّا المدخل الثاني فيتّصل بجهة المضمون، أي أنّه يتّصل بطريقة فهمنا لكلام النبي ﷺ من خلال أحاديثه.. وهكذا بالنسبة إلى الأئمة عليهم السلام في دائرة الشيعة الإماميّة، الذين يرون أنّ الأئمّة هم خلفاء النبي، وأنّهم معصومون عن الخطأ، فإنّ المسألة هنا تتعلّق أيضاً بصحّة صدور هذا النص عن الإمام أو عدم صدوره وكيف صدر، وكيف نفهم ما صدر منه؟

ونحن نعتقد من خلال ذلك، أنّ كلّ ما جاءنا من تراث فقهيّ وكلاميّ وفلسفيّ هو نتاج المجتهدين والفقهاء والفلاسفة والمفكرين، من خلال معطياتهم الفكرية، ولا يمثّل الحقيقة إلا بمقدار ما تقتنع به من تجسيده للحقيقة، على أساس ما نملكه من مقاييس الحقيقة، وبهذا فإنّنا نعتبر أنّ كلّ الفكر الإسلامي - ما عدا الحقائق الإسلامية البديهيّة - هو فكر بشريّ، وليس فكراً إلهياً، قد يُخطئ فيه البشر في ما يفهمونه من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، وقد يُصيبون.

هـ - تراث المجتهدين

وعلى هذا الأساس، فإنّنا نعتقد أنّه من الضروري جداً أن ننظر إلى التراث

المنطلق من اجتهادات المفكرين - أينما كانت مواقع تفكيرهم - نظرة بعيدة عن القداسة في توجهاتهم، وهم من هم في مؤهلاتهم الروحية سواء كانوا على مستوى المراجع أو على مستوى الأولياء في تقواهم لله سبحانه وتعالى، لأن ذلك شيء ومسألة الفكر شيء آخر. ولذلك فإننا ندعو إلى دراسة التراث دراسة ناقدة، نعيش فيها شخصيتنا الفكرية ونعيش فيها انفتاحنا الفكري الذي عاشه الأقدمون في ما مارسوه من تجربتهم الفكرية.

لذلك نحن نرى أن إغفال التراث هو خطأ كبير، كما هو الحديث عن الاستغراق في التراث خطأ كبير. فمن الضروري أن نفتح على كل معطيات عصرنا، سواء تلك التي انطلقت في دائرة الفكر المادي أو التي انطلقت في دائرة الفكر الديني، أو في أية دائرة من الدوائر الحائرة بين ما هو الدين وما هو الكفر، حتى ندرس كل ركائزها وقواعدها ومعطياتها من موقع الحرية الإنسانية، التي تبحث عن الأصالة من موقع القناعات الأصيلة للفكر. ومن خلال ذلك، لا بد من الدخول في المقارنة بين ما لدينا من تراث، استطاع أن يؤثر تأثيراً لا شعورياً في تركيبتنا الذهنية والشعورية والعملية، وبين ما عندنا من معطيات فكرية جديدة في الواقع المعاصر، لنستخلص من خلال هذه المقارنة المنهج الجديد الذي يملك الأصالة في مواقفه الفكرية، ويملك الحداثة في أساليبه وتطلعاته^(٨).

و - القداسة لمن؟

ويؤكد المرجع الراحل (قدس سره) هذا المفهوم في مقام آخر فيقول: «إننا ننطلق من فكرة حاسمة في هذا المجال، وهي أن القداسة تكون للحقائق، التي لا يختلف فيها الناس، أما كل شيء غير ذلك فهو ممكن أن يقع فيه الخلاف، ولا

(٨) المصدر السابق.

بدّ للناس أن يدرسوه على قاعدة الاستقلال الفكريّ الذي يبحث عن الحقيقة من خلال قناعاته، وبذلك فإنّ كلّ شيء قابل للنقد وللدراسة، وكلّ شيء قابل للانفتاح عليه والتعاطي معه - سواء كان قديماً أو حديثاً - ونحن عندما ندرس القرآن الكريم، فإنّنا نجد فيه دراسة لكلّ الماضي ونقداً للكثير منه، وتأكيداً على الحقائق الجديدة، وتوجيهاً للإنسان لأن يبقى في حالة انفتاح فكريّ دائم متحرّك، وتأكيداً لكلّ الناس بأنّ الجيل الحاضر لا يتحمّل مسؤوليّة الجيل الماضي، كما أنّ على كلّ جيل أن يكسب فكره وعمله بنفسه، وذلك ما توحى به الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ومن الواضح أنّ هذه الآية تحمل إحياء و هو أنّ لكلّ أمة كسبها، وعليكم أن تكسبوا أنتم كما كسبت تلك الأمّة، وأن تتحمّلوا مسؤوليّة كسبكم كما تحمّلت تلك الأمم مسؤوليّة كسبها، سواء كان الكسب كسباً فكرياً أو عملياً. نحن نعتقد أنّ الذين يتحدثون عن مصادرة التراث هم المنبهرون بمظاهر الحضارة الحديثة، التي هي نتاج حضارات قديمة، استطاعت أن تركز لها قواعدها حتّى أمكنها أن تتحرّك وأن تنطلق، وإنّ الذين يتحرّكون في دائرة الاستغراق في التراث هم أناس يعيشون قداسة الماضي ويغفلون عمّا حفل به الحاضر من تطوّرات إنسانية، وإن كان للماضي دخل فيها، ولكن كان للطّاقات الإنسانية المنفتحة على الله وعلى الحياة وعلى الإنسان الدور الكبير في هذا المجال»^(٩).

(٩) محمد حسين فضل الله: مقال بعنوان نحو منهج نقدي للتراث، نقلاً عن موقع بينات.

نماذج إصلاحية

لم يكن المرجع الراحل السيّد محمد حسين فضل الله (قدس سره) بدعاً من العلماء في كشف حقيقة بعض المضامين الضعيفة والباطلة التي تُطرح من خلال المنبر الحسيني، وخطورة ذلك على فهم الإسلام وسلوك المؤمنين وشخصياتهم، وفي تشويه صورة الإسلام والولاء لمدرسة أهل البيت عليه السلام، فقد سبقه إلى ذلك كوكبة كتبوا وتحدّثوا بكلّ صراحة حول هذا الموضوع، وفي الصفحات التالية بعض النماذج التي حفظها لنا التاريخ، ووُثِّقت بطرق مختلفة.

١- الميرزا النوري في مواجهة الأكاذيب

وُلد الميرزا حسين النوري في ١٨ شوال ١٢٥٤ هـ صاحب (المستدرك على وسائل الشيعة) في قرية من قرى نور في طبرستان، وإليها نُسب فسمّي «النوري»، وتوفي في ٢٧ جمادي الثانية ١٢٢٠ هـ . أثنى عليه السيد محسن الأمين (قدس سره) في «أعيان الشيعة» بقوله: «كان عالماً فاضلاً محدثاً متبحراً في علمي الحديث والرجال عارفاً بالسّير والتواريخ... وكان وحيد عصره في الإحاطة والاطّلاع على الأخبار والآثار والكتب»^(١٠).

ومن بين مؤلفاته كتابه (اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر) والذي

(١٠) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج ٢٧، ص ١٣٩..

صنّفه بناء على طلب أحد علماء الهند الكبار، وفي ذلك يقول: «قد شكّا ذلك العالم - مراراً من إقبال بعض قرّاء العزاء وأهل المنبر على تحرّي المبالغة ونشر الأكاذيب والروايات المزعومة دون خوف أو ورع بل إنّ بعض هؤلاء يزعم جواز ذلك وإباحته إذ إنّ الغاية منه إبكاء المؤمنين على الإمام الحسين (عليه السلام) وهذا ما يُخرجه، بنظرهم، من دائرة القُبْح والحُرمة، وقد طُلب منّي أن أكتب شيئاً حول ذلك من باب الموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن عسى أن ينتبه هؤلاء الغافلون ويرتدعوا عن ارتكاب هذه القبائح.

ويظهر أن جنابه العالي يظنّ أن الطائفة الشيعيّة التي تقطن في بلاد العتبات المقدّسة في إيران في راحة وفراغ بال من هذه الورطة، وأنّها لم تُلوّث بهذه الأكاذيب والافتراءات بعد، وأنّ الخلل الدينيّ لا يزال منحصراً في بعض البلاد النائية، ولم يُنشر في أنحاء بلاد الشيعة، غافلاً عن أنّ هذا التلوّث الهدّام قد انتشر من منبعه في كل صوب وناحية»^(١١).

وبدأ الميرزا النوري كتابه ببيان أهميّة الإخلاص لله سبحانه عند من يعتلي منبر الحسين (عليه السلام) أو يريد ذكر مصاب كربلاء، وخطورة تحويل ذلك إلى وسيلة للتجارة والترجّح، قال (رحمه الله): «وعلى الجميع أن لا يغفلوا ولا يغيب عن أذهانهم أنّ هذه العبادة كغيرها من العبادات لا تكون مقبولة إلا إذا كان الداعي إليها نيل رضى الله وإدخال السرور على قلب الرسول ﷺ وآله (عليهم السلام) .. أمّا إذا صعد المنبر وهو يريد التقرب من المخلوقين ونيل رضاهم أو الحصول على شيء من أموالهم، ثم قرأ العزاء بهذا الداعي ولهذا الهدف، فإنّ الشيطان سيدفعه ليقع عن ذلك المنبر إلى حفرة الهوى والنفس، وينزلق إلى هاوية الدنيا القذرة.. ثم إنّ قرّاء العزاء سيُسألون عن دليل جواز هذا النوع من التجارة

(١١) نوري الطبرسي: اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر - ترجمة إبراهيم بدوي - والنص منقول عن مقال بعنوان شروط المنبر الحسيني وأدابه ومنشور على صفحة بينات..

ومدرك حليّة ما يقبضونه كعوضٍ عمّا يقرأونه، وسيحملون وزرَ كلِّ من سار بعدهم على هذا المنهج وعمل بهذه السُنّة، كما أنّهم سيُساءلون عن السبب الذي دعاهم إلى تصوير ما يقدّمون به على أنّه مستحبّ ونسبته إلى الشارع.. وكيفما كان، فإنّ قارئ العزاء إذا كان متديّناً ويحرص على أن يعتاش بمال حلال، فليس عليه إلّا الرجوع إلى ذلك العالم الذي يقول بحليّة أخذ الأجرة على الأذان كما أشرنا، لتقليده في المسألة فربّما يخرج بذلك عن عهدة أكل المال الحرام، وإن كان سيحرم نفسه من كثير من النعم الأخروية والألطف الإلهية»^(١٢).

ثم عرّج الميرزا النوري على البحث في قيمة الصدق وآثار الكذب، لاسيّما الكذب على الله ورسوله وآله، الذي يُعدّ - حسب تعبيره - من أعظم الموبقات، ثم قدّم عدّة تنبيهات في هذا المجال:

«تنبيه أول: ما يتناسب مع فرضنا هنا تنبيه قارئ العزاء البصير المتّقّي، أنّه إذا رأى حكاية في كتاب أحد العلماء، فإنّه وإن لم يكن هناك محذورٌ في نقلها إلّا أنّه لا بدّ من التأمل فيها والالتفات، بل الفحص للتأكد من أنّه لم يرو علماء آخرون رواية على خلافها على نحو يحصل بينهما التعارض فيكون اللازم حينئذ تأويلها. وعليه في هذا المقام أن يفعل ما يلي:

أولاً: أن يذكر مستند الرواية دون أن يجزم بمضمونها فلا يقول إنّ الإمام قال كذا أو فعل كذا..

ثانياً: أن يذكر مخالفة الآخرين لها فلا يُغرّ أذان السامعين بها خصوصاً إذا كان صاحب ذلك الكتاب من كبار علمائنا.

تنبيه ثانٍ: لا يجوز للنّاقل المتديّن، بمجرد رؤية خبر أو حكاية في كتاب منسوب إلى عالم من العلماء، أن يقتنع به ويأخذ عنه، فكيف إذا كان قد ألف هذا

(١٢) المصدر السابق.

الكتاب في أوائل عمره، ولم يكن قد وصل بعد إلى مقام تمييز الصحيح عن القيم والثقة عن غير الثقة»^(١٢).

واعتبر الميرزا النوري أنَّ ما يفعله ناقلو الأخبار الكاذبة من مصاديق الحديث النبوي: «سيجري على هذه الأمة كل ما يجري في الأمم السابقة». قال (رحمه الله) بعد أن ذكر قصّة ترتبط بنقل الأخبار الضعيفة على المنبر الحسيني: «وبملاحظة ما جاء عن أهل البيت عليهم السلام من الإشارة إلى بعض تلك الوقائع، وبملاحظة ما طبقه علماؤنا الأعلام بفكرهم الثاقب من الوقائع والقصص الحاصلة في أمتنا على تلك التي حصلت في الأمم السابقة خصوصاً في أمة بني إسرائيل لا بدّ أن يكون في أمتنا نظير لهذه القصّة المتقدّم ذكرها. ولم أرَ أحداً أشار إليها إلى حدود عصرنا هذا، إلاّ أنّ جماعة قراء العزاء فتحوا عيوننا وبيّضوا وجوهنا وأكّدوا لنا صدق الأخبار النبويّة الواردة في هذا المقام، وبيّنوا لنا بأقوالهم وأفعالهم ما هو نظير تلك الواقعة في أمتنا هذه. وتوضيح هذا الإجمال أن هناك روايات عديدة في هذا الباب وبلسانٍ عربيّ فصيح، وتمتلك من أسباب صحّة السند وقوّة المتن أحسنها وهي دائرة على ألسنة الكثيرين من هذه الجماعة التي فيها من يتمتّع بفصاحة وبلاغة عاليتين ويتلون بها بكلّ طمأنينة من فوق أعواد المنابر، وربّما ذكروا لها راوياً معيّناً ليضفوا بها على تلك المجالس والمآتم رونقاً خاصّاً نضراً يشجون به القلوب ويبكون العيون، فتعلو الآهات من هنا وهناك. وقد عمدت جماعات من أهل الاطلاع والخبرة وأرباب العلم والبصيرة عبر السنين المتطاولة الماضية، وعلى حسب ما لديهم من قوّة وهمّة إلى السعي لإيجاد مأخذ ومستندات لتلك الأخبار وللعثور على الكتاب التي صدرت عنه تلك الطائفة من الروايات فلم يجدوا لها عيناً ولا أثراً. وليس هناك ما يشير إليها في كتب أساتذة فنّ الحديث والرواية ولا لدى

(١٢) المصدر السابق.

أرباب الكتب الكثيرة التي لا حد لها ولا حصر في كل العصور الماضية، بل لم يجدوها حتى في كتب الجماعة التي عُرفت بالتسامح في نقل الأخبار الضعيفة في أمثال هذا المقام. وعندما تكرر السؤال كثيراً عن مآخذ تلك الروايات كانوا تارةً يُحيلون على كتب بعض العلماء الذين عُرفوا بالتسامح في هذا المقام مثل السيد الجزائري وأمثاله. ولكن بعدما صُرفَ العمر وتُحُمِلت المشاق الكثيرة في البحث عن ذلك الكتاب المُحال عليه تبين أن تلك الحوالة كانت جوفاء ولا واقع لها.

وتارةً أخرى يُحيلون على كتابٍ ليس له ذكرٌ أصلاً بين أهل هذا الفن، وثالثةً على «مقتل» عالم جليل لم يُذكر بين مؤلفاته (مقتل) على الإطلاق. ورابعةً على بلاد البحرين والقطيف حيث طريق الفحص والبحث مسدود. وبهذا النمط من الأعذار يتهربون من البوح بالحقيقة ويُخفون ذلك السر على الآخرين. وبما أن جملة من هذه الجماعة هم من العلماء المعتبرين الذين يُعرف عنهم التحرز عن قول الكذب عمداً، فليس أماناً من باب حمل عملهم على الصحة بمقتضى الأخوة الإسلامية إلا أن نجرّ حكم «مسنا» بني إسرائيل إلى هنا ونقول: إن هذه الروايات قد وصلت إلينا عبر سلسلة هذه الجماعة يدأ بيد ومن صدر إلى صدر. وقد بُدِئَ بجمع تلك الروايات شيئاً فشيئاً بدءاً من العصور القريبة من عصرنا هذا.

وقد تجد في بعض الكتب من يعبر عن مستند رواياته بقوله: «وجدت في مجموعة والدي المرحوم...» أو في «سفينة الأستاذ المغفور له» أو «في مقتل الفاضل الفلاني» بل ربما يخلقون اسماً جديداً من رأس. وربما يبدلون في ترتيب الأسماء بما يوحي أن الرواة هنا غير الرواة هناك ممّا يعطي الخبر قوة لتعدّد مصادره، فلو أننا جمعنا تلك الروايات لصارت «مسنا» هذه الأمة إلا أن «مسنا» اليهود كتاب معين معروف وقد وضع له تفسيران يحفظانه عن الزيادة

والنقيصة، بينما «سنا» هذه الأمة يمتلك قوة نباتية قوية إذ بمجرد انتقاله من جيل إلى جيل آخر ينمو فوراً وتحلّ فيه البركة ويفرّخ غصوناً جديدة ويخرج أوراقاً طرية نضرة وإلى أن يصل مسيره إلى المنبر ويحين موسم نقله تظهر فيه القوة الحيوانية فينبت له ريش وجناح كطير الخيال فيطير بلمحة واحدة إلى الجهات المختلفة»^(١٤).

وحول ما يقدّمه هؤلاء من مبررات لنقل ما ينقلونه من الأحداث والأخبار الضعيفة قال في ذمّ ذلك واعتباره من الأوهام التي لا أساس شرعيّ لها: «وعمدت تلك الأوهام، الأول: ما نُقل عن بعض مختلقي الكذب من الأخبار التي تمدح الإبقاء وترغب فيه وما سَطُر في هذا المجال ممّا يوحي بأن كلّ ما يحمل على البكاء وما هو وسيلة للتفجّع وإسالة الدموع ومدوح ومستحسن ولو كان كذباً وافتراءً.. الثاني: استقرار سيرة العلماء وديدنهم على نقل الأخبار الضعيفة في مؤلفاتهم وضبط الروايات غير الصحيحة في أبواب الفضائل والمصائب وتسامحهم في هذه المقامات»^(١٥).

ويختم الميرزا النوري كلامه بالحديث حول مسؤولية المستمعين - من عامة الناس والعلماء - للأخبار الكاذبة والحكايات والقصص الباطلة (وبيان تكليف سامعي العزاء في استماعهم لكلام هذا الصنف من القراء المتجرئين على الله واللامبالين بما يقولون. يقول الله تعالى في ذمّ اليهود بل المنافقين وبيان صفاتهم الخبيثة وأفعالهم القبيحة: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ» [المائدة: ٤١]، وبعد آية يعود للتأكيد قائلاً: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلْسَحْتِ» [المائدة: ٤٢].

وفي هاتين الآيتين تهديد على استماع الكذب سواءً كان بهدف نقلها أو

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) المصدر السابق.

لم يكن، وسواء كان على وجه القبول والتصديق بها أو لم يكن.. ولا يخفى أن ما ذكرناه في هذه الخاتمة من بيان حكم استماع الكذب إنما هو لعامة الناس الذين لا يترتب على فعلهم مفسدة سوى ما يعود عليهم من ضرر أخروي، أما عباد الله الصالحون الذين هم أدلاء الركب على الله عز اسمه والذين يجب عليهم أن ينصروا الله في أقوالهم وأفعالهم فيذكرون عباد الله بالحلال والحرام وبالطاعة والعصيان، فإن استماعهم للكذب الصادر عن قرأء العزاء في مجالسهم، والذي لا حصر له خصوصاً في ما يتعلق بسيرة وأقوال الأئمة الطاهرين عليهم السلام يترتب عليه مفسد أخرى، منها دخول هؤلاء المستمعين العلماء في زمرة الكاذبين فيكونون بذلك مبتلين بكلا النوعين: الكذب والاستماع إليه لما بيناه من أن الكذب في اللغة من صفات اللفظ والكلام. أما في الشرع فيعم بحكمه كل الأفعال الصادرة عن الجوارح غير اللسان كاليد والعين والرأس والرجل، وهكذا في السكوت والتقرير على ما مر بيانه وأمثله. وهذا المقام من ذلك القسم لأنه حينما يستمع العالم المطاع والمسموع القول إلى قارئ عزاء ينقل خبراً كاذباً وينسبه إلى الإمام بهتاناً فلا ينهاه عن ذلك مع تمكنه من النهي وعدم احتمال لحوق الضرر به ويسكت ولا يردعه ولا يغير عليه بشيء وهذا أدنى مراتب النهي عن المنكر، فإن قارئ العزاء يفهم من ذلك أن ما يقوله ليس كذباً في نظر هذا العالم، بل يعد سكوته إمضاءً لذلك النقل وكأنه صرح بذلك بلسانه فيتمسك بهذا السكوت ليجعله دليلاً على صدق الخبر وصحته فيواجه به كل من ينكر عليه ذلك ويخذله ويحججه ويخجله وإلى ما هنالك من مفسد. فإجمالاً سكوت المتمكنين يزيد من تجرأ هؤلاء ولا مبالاتهم ويقوّي هذه الطائفة التي تسود بأكاذيبها العجيبة وبألحانها المطربة محاضر النور في المقامات المشرفة والروضات المباركة خصوصاً حرم صاحب العزاء سيد الشهداء أرواحنا وأرواح العالمين

له الفداء، في غالب الأوقات، سيّما في الأسحار الذي هو وقت البكاء والأنين والاستغفار فإنّهم يُخرجون بكذبهم أفواج ملائكة الرّحمة، ويحوّلون عباد الله عن حالة العبادة والإنابة والتضرّع ليدخلوهم في زمرة الصّادّين عن سبيل الله ولا يمنعمهم عن ذلك أحد.

وفوق كلّ هذا فإنّهم يتعجّبون من عدم استجابة الدّعاء تحت تلك القبّة السّامية، وهم لا يعلمون أنّه لم يسلم من شرّهم قبة ولا حرم ولا ملائكة ولا فيض قدسيّ، بل إنّ لهوهم وتعصّبهم وتكسّبهم تارة رأس مال دنيويّ وأخرى برأس مال دينيّ قد أسرى فسادهم إلى الآخرين حيث صاروا يفترشون بساط التسلية ويتبادلون القصص الطويلة الكاذبة في الصحن المقدّس وينشغلون ثلاث ساعات بسرد الأكاذيب الواضحة المعلومة الفساد وقد اجتمع حولهم جماعة من الأوباش والأرذال، فلو أنّ هذا المحفل القذر -الذي هو محلّ لعن وسخط الجبّار المنتقم جلّ جلاله- انعقد في الصحراء وبعيداً عن أعين الناس لوجب على المسلمين تفريقهم ومنعمهم منه، فكيف إذا كان في الصحن الشريف وعند قبور آلاف المؤمنين الأخيار بدل أن يعتبروا ويتعظّوا منهم ويدعوا لهم ويقرأوا لهم القرآن، وفوق معراج الملائكة ومحلّ تردّدهم وانشغال مجاورهم بالبكاء والأنين والصلاة والاستغفار للزّائرين لا مثل أولئك الزّوار الذين يشغلون أنفسهم بذلك المنكر القبيح أو يعينون عليه أو الذين يرون ذلك المنكر في محضر المجلس الإلهي فيتركونه دون أن يهتمّوا أو يلتفتوا إلى قبحه أصلاً، فأين هؤلاء من التّأثّر والغمّ والشعور بالمسؤولية وأين هم من مقام الردع والنهي عن المنكر؟

إنّ اللاّئق بحال أرباب العلم والوعي أن يعملوا على ترتيب مجالس عزاء جديدة لأبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، يرفعون بها أثر الصّدّات التي لحقت بوجوده المبارك وبزائريه ومجاوريه وخدامه وحاملي علومه والمتعبّدين

والناسكين والمأمومين وغيرهم.. فتعقد المجالس على أنواعها وأقسامها في الليل والنهار وعلى أيدي أهل الدين والتقوى وأصحاب الغيرة والحمية فيقرأون المصائب ويكون طالبين من الله تعالى تعجيل فرج وظهور السلطان ناشر العدل والأمان وباسط الفضل والإحسان وقامع الكفر والنفاق والعدوان»^(١٦).

٢- عباس القمي وتقريعه بالمكذبين

هو الحاج الشيخ عباس القمي المعروف بالمحدث القمي صاحب المؤلفات العديدة والتي أشهرها وأكثرها تداولاً كتاب (مفاتيح الجنان) ولد في مدينة قم عام ١٢٩٤ هـ، وارتحل إلى النجف الأشرف حيث تلقى نصيباً من التعليم الحوزوي، لاسيما على يد الميرزا النوري الذي أسلفنا الحديث عنه. وفي عام ١٣٢٢ هـ عاد إلى مسقط رأسه ثم غادرها إلى مدينة مشهد، وبقي فيها مدة ١٢ سنة، وصنّف فيها أكثر مؤلفاته التي ناهزت الستين، وتوفي عام ١٣٥٩ هـ .

قدّم (رحمه الله) في خاتمة الجزء الأول من كتابه (منتهى الآمال) بعد ذكر سيرة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام مجموعة من التنبيهات بخصوص السلوكيات والتصرفات الخاطئة، أو بعض التجاوزات الشرعية التي تُرتكب باسم العزاء على الحسين عليه السلام في وقته، وذلك بعد أن أكّد على الرجحان الشرعي لأصل إقامة العزاء، قال: «لا يخفى أنّ المتعارف في بلاد الشيعة من إقامة العزاء والمآتم لسيد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء، والاجتماع في المجالس ونشر الأعلام ونصب الخيام وتعطيل الأسواق في يوم عاشوراء وخروج مواكب العزاء والبكاء والإبكاء وغير هذه الأمور التي لا تنافي الشرع المطهر، كلّها من العبادات الراجعة لها ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ جميلٌ»^(١٧).

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) عباس القمي: منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، ج ١، ص: ٨٢٠.

ثم قال منبهاً: «الجدير بالشيعة أن يُقيموا هذه المجالس بنحو لا يثير اعتراض الأعداء والنواصب، بأن يقتصروا على فعل الواجبات والمستحبات، ويتركوا المحرمات كالغناء الذي لا تنفك غالباً القصائد اللطمية عنه، وأن يجتنبوا الأكاذيب المفتعلة والحكايات الضعيفة المظنونة في الكتب غير المعتمدة، بل يجب عليهم الاحتراز عن هذه الكتب التي لا يكون مؤلفها خبيراً بالعلم والحديث، وأن يطردوا الشيطان ولا يجعلوه شريكاً في هذه العبادة العظيمة التي هي من شعائر الله، وأن يجتنبوا المعاصي التي تُميت روح العبادة والتقوى، سيما الرياء والكذب والغناء، التي قلما خلا الناس منها. والصواب أن أذكر أحاديث في شدة عقوبة كل واحدٍ منها كي يرتدع مَنْ ابتلي بها.

أما الرياء: فقد جاءت روايات وأخبار في ذمه والوعيد عليه، وفي الحديث النبوي أنه «أدنى الشرك»، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أن «النار وأهلها يعجبون من أهل الرياء» فقيل: يا رسول الله كيف تعج النار؟ قال: «من حر النار التي يعذبون بها».

وعنه أيضاً: أن «المرائي يُنادى يوم القيامة: يا فاجر! يا غادر! يا مرائي! ضلّ عملك وبطل أجرك، اذهب فخذ ممّن كنت تعمل له».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء» وفي رواية أن الجنة تكلمت فقالت: «أنا حرام على كل بخيل ومراء».

والأحاديث كثيرة ويكفيها في قبحه أنه لو دخل في عمل لأبطله بفتوى جميع الفقهاء. وللرياء أقسام خفية ذكرت في محلّها، وقد رددنا في أول (الخاتمة) قول من يزعم سفهاً جواز الرياء في عزاء سيّد الشهداء عليه السلام وعدم اشتراط الإخلاص فيه. وقد عدّوا هذا من فضائله عليه السلام المخصوصة بزعمهم. سبحان

الله! لقد تحمّل الحسين عليه السلام تلك المصائب العظام لتشييد أساس التوحيد وإعلاء كلمة الحق وإتقان مباني الدين المبين وحفظه من تطرّق فتن الملحدين إليه، فكيف يحتمل ذو شعور وإدراك أنّ الحسين عليه السلام يكون سبباً لجواز ارتكاب أعظم المعاصي وهو الرياء أو الشّرك الأصغر؟ إنّ هذا إلا اختلاق.

أما الكذب فالأخبار كثيرة في ذمّه، وإنّ الله تعالى جعل لعنته على الكاذبين وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ [النحل: ١٠٥].

ولو لم يكن سوى هذه الآية، لكفتنا، فضلاً عن ورود الآيات الكثيرة في سياقها، وروي في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ أوّل من يكذب الكذاب، الله عزّ وجلّ ثمّ الملّكان اللذان معه، ثمّ هو يعلم أنّه كاذب»...

فبعد أن عرفت مفاصد الكذب، فاعلم أنّ فحول الفقهاء عدّوا مطلق الكذب من الكبائر، سواء ترتّب عليه مفسدة أم لم تترتّب عليه، هذا أمر الكذب الذي ليس فيه مفسدة، فكيف بالذي فيه مفسدة، سيّما اذا كانت مفسدة دينيّة، أو سبباً لضعف عقائد المسلمين أو إهانة إمام، فحينئذٍ يتضاعف قبحه، ولو كان الكذب على الله ورسوله والأئمّة عليهم السلام فمعلوم حاله، فإنّه يبطل الصّوم ويوجب الكفارة. وروي في عقاب الأعمال عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من قال عليّ ما لم أقل فليتبوّء مقعده من النار». وإطلاق الخبر يقتضي دخول النار بسبب كلمة واحدة ليس لها فائدة ولا مفسدة، ولذا حُكي عن المرحوم الفقيه الزاهد الورع محمد إبراهيم الكلباسي طاب ثراه أنّه لما قال أحد الفضلاء المتديّتين من أهل المنبر والخطابة - بعد كلام ذكر - إنّ الحسين عليه السلام قال: «يا زينب، يا زينب»، صاح ذلك الفقيه الورع بالخطيب من تحت المنبر في ملأ الناس: «فضّ الله فاك، لم يقل الإمام يا زينب مرّتين بل قالها مرّة واحدة».

فعلى أهل المنبر والخطابة الحذر والملاحظة، وأن يطلّعوا على مفاصد الكذب

في الجملة كي يتركوا الكذب والروايات المجمعولة، بل لا ينقلوا كلّ ما سمعوه أو رأوه ويقتصروا على المطالب التي ذكرها الثقات.

وذكر السيد ابن طاوس في (كشف المحجّة) نقلاً عن رسائل الكليني، بسنده عن الباقر عليه السلام، في جملة ما قال: «ولا تُحدّث إلا عن ثقة فتكون كاذباً والكذب ذلٌّ».

وفي نهج البلاغة من جملة ما كتبه أمير المؤمنين عليه السلام للحارث الهمداني: «ولا تُحدّث الناس بكلّ ما سمعت به فكفى بذلك كذباً»^(١٨).

وأضاف (رحمه الله) في صفحات لاحقة: «وذكرت نصيحة بالغة وموعظة جامعة في مقدّمة كتاب (الأربعين الحسينيّة) لا يخلو إيرادها عن فائدة، قال ما مضمونه: «ليعلم الشيعة الإثنا عشرية أنّه ليس لهم شعائر أكثر شيوعاً من إقامة العزاء لسيد الشهداء عليه السلام والبكاء عليه، بل قد اندرست أكثر الآثار والسُنن والآداب الشرعية وهُجرت إلا التوسّل بسيد الشهداء عليه السلام، فهذه المجالس بحمد الله تترقّى وتتّكامل يوماً فيوم».

فالجدير حفظ حدود وضوابط هذا العمل المهم بحيث لا يخرج عن حدّ قواعد الشرع الأقدس وضوابطه ولا يدع مجالاً لأهل العناد والخلاف للاعتراض والطعن ولا سيّما في زماننا هذا الذي اختلط فيه أهل المذاهب وتعاشر بعضهم ببعض، وقد ذكرت واقعة الطفّ ومقتل سيد الشهداء عليه السلام في أكثر كتب التاريخ فلا بدّ من التحرّز عن ذكر الأمور المبتدعة في مجالس العزاء وترك المنهيات الشرعية كالرثاء المطرب مع ضرب المزامير والطبول، وعسى أن يكون الطرب في هذه المجالس أكثر منه في مجالس اللهو واللّعب.

وقد ذكر وصف هؤلاء القوم في الحديث أنّهم: يطلبون الدنيا بأعمال الآخرة،

(١٨) المصدر السابق ص ٨٢٢ - ٨٢٩ مع الاختصار .

ومن المعلوم أنّ هذه الأفعال تسبّب الحرمان من عظيم الأجر والثواب، والشيطان لا يغفل عن الإغواء في هذا المجال لأنّه عدوّ الإنسان ويريد إفساد الأعمال التي تنفع الإنسان أكثر من غيرها، كالتوسّل بسيد الشهداء عليه السلام الذي يسبب الفوز والنجاة من النار بحسب الأخبار والروايات.

وتتّجه أنظار الجهّال وطلبة الدّنيا إلى كلّ ذي منفعة دنيوية، فحتّى ذكر مصائب أهل البيت عليهم السلام أصبح اليوم وسيلةً لتحصيل المعاش والتكسّب، ولم تلحظ جهة العبودية فيه غالباً، وبلغ الأمر إلى حدّ بحيث تُذكر الأكاذيب الصريحة في مجاميع العلماء دون أن يُنهي عن المنكر ويتجاوز البعض من الخطباء حدّه ويختلق الحكايات المبكية ويزعم دخوله في من أبكى فله الجنّة.

ويتداول هذا الكلام الكاذب وهذه الحكايات المختلفة لفترة زمنية حتى يشيع ويذكر في التّأليف الجديدة، وكلّما منع من ذكر هذه الأكاذيب محدّث مطّلع أمين نسبوه إلى كتاب مطبوع أو كلام مسموع، أو تمسكاً بقاعدة التسامح في أدلّة السنن، وذلك يؤدّي إلى ذمّ ولوم الأقوام الأخرى من سائر المذاهب، كالوقائع المعروفة المتداولة في الكتب الجديدة التي لا أثر لها لدى أهل العلم والحديث، كعرس القاسم في كربلاء الذي ذُكر في كتاب روضة الشهداء للفاضل الكاشفي، ونقل عنه الشيخ الطريحي الذي هو من المعتمدين والعلماء، لكن توجد مسامحات كثيرة في كتابه المنتخب، كما لا يخفى على أهل البصيرة والاطلاع» انتهى.

نُصْحٌ وتحذير

ما أوجب وأجمل لأهل المنابر والذاكرين لمصاب سيد الشهداء عليه السّلام الذين حملوا راية تعظيم شعائر الله بأيديهم وبذلوا نفوسهم لتعظيم هذه الشعائر، الالتفات والتوجّه إلى أنّ هذا العمل عبادة كسائر العبادات، وهو لا يُقبل إلّا إذا أُريد به وجه الله ورضا رسوله والأئمّة عليهم السلام، مع الاحتراز عن المفسد الطارئة

على هذا العمل بأن يقدم الخطيب على الخطابة ويذكر المصائب لتحصيل المال أو الجاه أو بيتلى بالكذب والافتراء على رسول الله والأئمة عليهم السلام والعلماء الأعلام، وأن يجعل الصبيّ الأمرد يقرأ قبله ويتغنى، أو يدخل إلى دار الآخرين دون أن يؤذن له فيصعد المنبر ويزجر الحاضرين لعدم بكائهم، وترويج الباطل عند الدعاء، ومدح الذين لا يستحقّون المدح وإهانة أهل الدين وإهشاء أسرار آل محمد عليهم السلام، وخلق الفتنة وإعانة الظلمة المجرمين بجروهم على الفسق والفجور وتحقير المعاصي في أعينهم، أو خلط حديث بحديث آخر وتفسير الآيات الشريفة حسب الذوق والرأي الشخصي ونقل الأحاديث بالمعاني الباطلة الفاسدة والإفتاء مع عدم الأهلية له وتنقيص الأنبياء العظام والأوصياء الكرام تعلياً لمقام أهل البيت عليهم السلام، والتمثّل بحكايات الكفرة لزينة الكلام ورونق المجلس، وذكر الحكايات المضحكة وأشعار الفسقة الفجرة وتصحيح الأشعار الكاذبة والمراثي المبتدعة بأنّها لسان الحال، وذكر الشبهات في مسائل أصول الدين دون ذكر الجواب عنها مع عدم التمكن والقدرة العلمية على ردّها، وذكر ما ينافي عصمة أهل البيت عليهم السلام وطهارتهم وتطويل الكلام لأجل الأغراض الفاسدة وحرمان الحاضرين عن إدارك فضيلة الصلّاة في أوّل الوقت وأمثال هذه المفاصد التي لا تُعدُّ ولا تحصى.

ولابدّ له من الحذر أيضاً حتى لا يدخل في زمرة الذين لزموا مقدّمات الوعظ لا حقيقته، والذين حفظوا الخطب البليغة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام وبعض النصائح الشافية الوافية له وذكرها على المنبر، وتحذير الناس عن الانهماك في الدنيا والغوص في مهالكها وتخويفهم عن حبّها وبيان مفاسدها والترغيب في الزهد فيها وعدم الاعتناء بزخارفها وزبارجها، استشهاداً بأحوال الأئمة عليهم السلام والخواص من أصحابهم والعلماء الراشدين، وقد يذكر أحوال النفس وصفاتها الحسنة كالخوف والرجاء والتوكّل والرضا، أو صفاتها الرذيلة والقبیحة، نقلاً

عن كتب الأخلاق أو كتاب الغزالي وغيره ثم إيرادها بتمام الفصاحة والبلاغة دون توقّف في الكلام أو لكنة في اللسان مع الاستشهاد بالأخبار والآيات الكثيرة المنظّمة على السّجع والقافية، ولكن هذا المسكين يزعم أنّصاف نفسه بهذه الأخلاق والصفات بمجرد حسن قراءته لها، بل لم يرتقِ هذا المسكين سُلّم الكمال وحاله كحال العوام من الناس أو دون ذلك، بانغماره في حبّ الدنيا وتعلّقه بجيفتها وننتها وزخرفها، فلو غفل صاحب المجلس أحياناً عن احترامه وإكرامه ولم يوقّره كما يجب ويتوقّع ولم يُجلّسه في صدر المجلس، لتغيّر حاله وبدأ بالعتاب والاعتراض وهو يزعم مع هذا كلّ أنّه من أولياء الله وأهل الآخرة وداخل في زمرة خُدّام سيّد الشهداء -روحي فدام- ويزعم أيضاً أنّه عارٍ من جميع الرذائل والخبائث بمجرد بعض محفوظاته المنبريّة، وجميع الرذائل والخبائث في العوام من الناس والمستمعين لمجلسه.

ولا يخفى على الخبير البصير والعالم بعيوب النفس أنّ حال هذا الشخص كحال المصباح الذي يحترق فيضيء للآخرين وهو في زمرة الغاوين كما قوله تعالى: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وقوله أيضاً: ﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، والآية الكريمة: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وغيرها من الآيات. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٢ - ١٠٣]. فمراعاة هذه الأمور من وظيفة أهل المنبر والخطابة^(١٩).

٣- العلامة محسن الأمين ورؤاه الإصلاحية

يعتبر المرجع الراحل العلامة السيد محسن الأمين العاملي (قده) (ت ١٣٧١هـ) ممّن حملوا همّ إصلاح شؤون المنبر الحسيني، وسعى لتحقيق ذلك من خلال عدّة اتجاهات، منها تقديم المؤلفات البديلة لتلك المنتشرة كمصادر ضعيفة يعتمد عليها المقرّؤون عادة، الإفتاء بتحريم بعض الممارسات الدخيلة على الشعائر الحسينية الأصيلة من قبيل التطبير، إقامة مجالس العزاء وفق الرؤية الإصلاحية التي قدّمها في كتبه وخطاباته وفتاواه، والعمل على تأسيس المدرسة المحسنية في دمشق وتهيئة خريجيها من المقرئين لتطبيق تلك الرؤية في المآتم الحسينية. ويُعدّ كتابه (رسالة التنزيه) خلاصة تلك الرؤية، وتعدّ الحلقة الأكثر إثارة في سلسلة أعماله.

وقد تناولت الرسالة عدّة موضوعات من بينها: التحريف في الواقعة التاريخية، التلحين في قراءة العزاء، ممارسات تؤدّي إلى إيذاء النفس، استعمال آلات الموسيقى في المواكب، تشبّه الرجال بالنساء والعكس، تشبيه أشخاص أهل البيت (عليهم السلام)، سماع صوت النساء، الصياح والصراخ حال العزاء، وكلّ ما يوجب الهتك والشنعة ممّا لا يدخل تحت الحصر، ويختلف الحال بالنسبة إلى الأقطار والأصقاع.

وحول جهود العلامة الأمين في هذا الإطار تحدّث المرجع الراحل السيد فضل الله (رض) في المهرجان التكريمي الذي دعا إليه المنتدى الفكري لإحياء التراث العاملي، في الذكرى الخمسين على رحيل العلامة السيد محسن الأمين، فقال: «إصلاح المنبر الحسيني والاحتفال بعاشوراء، فقد ذكر في مذكراته: «إنّا وجدنا مجالس العزاء وما يُتلى فيها من أحاديث غير صحيحة وما يُصنع في المشهد المنسوب إلى زينب الصغرى المكناة بأمّ كلثوم في قرية راوية من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات، وبعض الأفعال المستنكرة، وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر

استئصالها لا سيما أنها ملبسة بلباس الدين». وهكذا، بدأ بتهديب السيرة الحسينية، وتربية القراء بالمستوى الثقافي الجيد الذي يميز بين الصحيح وغير الصحيح.. وبتحريم جرح الرؤوس بالمدى والسيوف ونحو ذلك لأنه محرّم بنصّ الشرع وحكم العقل، لأنّ فيه إيذاءً للنفس وهو محرّم شرعاً وعقلاً، ولا يترتب عليه فائدة دينية ولا دنيوية، بل يترتب عليه إبراز شيعة أهل البيت عليهم السلام بصورة الوحشية والسخرية. وقد تحدّث العلامة الأمين عن ردّ الفعل ضدّ هذا الإجراء الفتوائي والإصلاحيّ من قبل التقليديين، فقال: «وقد عملت في ذلك رسالة التنزيه، وقام لها بعض الناس وقعدوا وأبرقوا وأرعدوا وجاشوا وأزبدوا، وهيّجوا طغام العوام والقشريين ممّن يُنسب للدين، فذهب زبدهم جُفاءً، ومكث ما ينفع الناس في الأرض.. لقد أشاعوا في العوام أنّ فلاناً حرّم إقامة العزاء، بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروج من الدين، واستغلّوا بذلك بعض الجامدين من المعمّمين، فقليل لهم إنّ فلاناً هو الذي شيّد المجالس في دمشق، فقالوا: قد كان هذا عن أوّل أمره لكنّه بعد ذلك خرج من دين الإسلام!!»

وقد استطاع هذا المنهج الإصلاحي أن يترك تأثيره الكبير على المجالس والمنابر الحسينية، ولكن التخلّف لا يزال يتحرّك بطريقة وبأخرى لإثارة العواطف الشعبية بطريقة غرائزية، وقد عانينا الكثير في حركتنا الإصلاحية في هذا الموضوع وغيره، من خلال هؤلاء المتخلّفين الذين لا يريدون للإصلاح والإصلاح أن يفرض نفسه على الواقع، في الصورة الإسلامية الحضارية في هذا العصر^(٢٠).

٤- الشيخ أحمد الوائلي والتجديد

يُعَدُّ عميد المنبر الحسيني الشيخ الدكتور أحمد الوائلي رحمته الله (ت ١٤٢٤هـ) من حَمَلَةِ لواء التجديد في المآتم الحسيني، إذ قدّم نموذجاً عملياً للمجلس

(٢٠) أُلقيت الكلمة في المهرجان الذي أقيم في بلدة عيناثا، جنوب لبنان بتاريخ الأحد ١٧ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، الموافق في ٢٨ تموز/ يوليو ٢٠٠٢م، وهي منقولة عن موقع بينات.

الحسينيّ المفعم بالفكر والثقافة وحركة العقل والطرح المنضبط، كما كان ناقداً شديداً لكلّ ما يُمارَس باسم الحسين عليه السلام من ممارسات مخالفة للشّرع أو مثيرة للاستهجان أو مرسّخة للخرافة والبدعة.

وقد تحدّث المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله (رض) في كلمته التي وجّهها إلى مؤتمر تكريم الراحل الكبير العلامة الدكتور الوائلي الذي انعقد في بغداد عن هذا الدور الريادي قائلاً: «كانت مدينة النجف الأشرف في حركة الحوزة تنفتح على التغيّر في الشكل والمضمون، من أجل التجديد، لمواكبة التطوّرات المعاصرة، في أسلوب الدراسة والتربية للنشء الجديد، وكان يقود هذا الاتجاه فريق متقدّم في العلم والخبرة والوعي والجرأة العملية.

وكان في مقدّمة هؤلاء العلامة الكبير الشيخ محمد رضا المظفر والطلّيعه المباركة من إخوانه، ممّن يعيشون حركية الانفتاح على متطلّبات العصر وأساليبه في تثقيف الناس، فكانت جمعية منتدى النشر التي كانت تستهدف نشر التراث، وتحوّلت نشاطاتها إلى تأسيس مدرسة تتماشى مع الأساليب الحديثة في التعاليم، ممّا جعل منهجها يجمع العلوم العصريّة والدينيّة والتربية الأخلاقيّة، وقد أدّت دوراً كبيراً عندما صادرت أساليب التعليم من سيطرة الكتابيب.

وانطلقت هذه المجموعة العلمية في نطاق الجمعية لتقوم بثورة ثقافيّة كبيرة في مواجهة التخلّف في الخطابة التي يمارسها قراء العزاء في إثارة الذكرى الحسينيّة، بما يجعل الهدف منها إثارة العاطفة وإسالة الدّموع ولطم الصدور فقط؛ الأمر الذي لا يحقّق أيّة ثقافة في أهداف حركة الإمام الحسين عليه السلام الإصلاحية التغييريّة، ممّا يؤدّي إلى الجمود الفكريّ في الوسائل الاستهلاكيّة، لولا وجود بعض الخطباء الكبار الذين كانوا يميّزون بالمعرفة الأدبيّة والتاريخيّة

والشرعية ولكنهم كانوا يمثلون قلة قليلة لا تصل إلى مستوى الظاهرة.

وانطلقت الجمعية في الدعوة إلى التجديد في أساليب الذكرى؛ ليتحوّل المنبر الحسيني إلى مدرسة ثقافية تفتح على أهداف الثورة وعلى تنوّعات الثقافة التفسيرية والتاريخية والأدبية، فما كان من الرافضين للتجديد إلا إعلان الثورة التي ربّما وصلت بالبعض من هؤلاء إلى اتّهام القائمين بحركة التجديد بالضلال وبالتخطيط لتهديم مجالس العزاء. وعاشت النجف في تلك المرحلة أزمة شديدة التعقيد، بين مؤيّد ومعارض؛ ولكن هذه الحركة استطاعت أن تقدّم نماذج مثقفة منفتحة على العصر وعلى أساليبه مع الالتزام بالحقيقة في مقابل الخرافة، والتقدّم في مقابل التخلّف، والاعتدال العاقل في مقابل التطرّف الجاهل.

وكان في مقدّمة هؤلاء فقيدنا الدكتور الشيخ أحمد الوائلي الذي رأى فيه الناس في أكثر من منطقة، ولا سيّما في مجالس بغداد، نموذجاً جديداً يميّز بالانفتاح الثقافي الذي يتحوّل فيه المنبر إلى مدرسة متحرّكة يتعلّم فيها الناس التفسير القرآني في امتداداته المعرفية الفكرية والروحية، كأسلوب جديد لم يتعوّد الناس في هذه المجالس أن يسمّعوه، إضافةً إلى التحليل التاريخي الذي يميّز بالدراسة الدقيقة للأحداث مع إطلالة على بعض معطيات العصر الحديث التي قد تكون شاهداً على الحقائق الإسلامية في العقيدة والالتزام مع التحدّث عن المأساة في قضايا عاشوراء بعيداً عن المبالغة وعن الروايات غير الموثوقة ممّا قد يُسيء إلى الذكرى.

وهكذا استطاع الشيخ الوائلي أن يفتح منهجاً جديداً في إغناء المنبر الحسيني ليكون متحرّكاً بالثقافة المتنوّعة، وليجمع مختلف الطبقات من المثقّفين وغيرهم، ومن أتباع المذاهب والأديان الأخرى، ممّا فتح لقضية عاشوراء أفقاً

رحباً ومجتمعاً جديداً، واستطاع الإيحاء لبعض الخطباء الناشئين بالاقتداء به في أسلوبه الحضاري.

وربما واجه هذا الخطيب المجدد، كما واجهت الطليعة الإسلامية الرسالية والمثقفون، أنّ هناك بعض التراجع لدى القائمين على شؤون المنبر الحسيني، إقامةً وقراءةً، بالارتداد إلى الوراء، في استغلال الناس بإثارة الخرافات والأكاذيب، واستغلال الأصوات المثيرة للبكاء فقط لاجتذاب الناس على حساب الخطباء الطليعيين. ولعلّ المشكلة هي أنّ الكثيرين من أولئك هم الذين يتولّون تثقيف الناس بعقائدهم وبأوضاعهم في الوقت الذي لا يملكون فيه علماً يفتح بهم على الحقيقة.

وقد كان خطيبنا الراحل يتألم من ذلك كله؛ لأنّه يرى أنّ الحركة التصحيحية والتغييرية بدأت بالانحسار في كثير من الأوساط الشعبية التي ترى أنّ العادات التي أدمنها الناس في التعبير عن انفعالهم بالمأساة العاشورائية أصبحت من المقدّسات التي قد يراها البعض في الحوزة وخارجها من الشعائر التي هي الوسيلة الوحيدة لارتباط الناس بأهل البيت (عليه السلام)، مع أنّ كثيراً منها لا ينسجم مع أبسط القواعد الشرعية فضلاً عن الجانب الحضاري للإسلام، ممّا يتحرّك في خطّ تشويه القيم الإسلامية بدلاً من أن يشكّل حركة في رفع مستوى الوعي وحيوية الوجدان الإسلامي الذي أراد الإمام الحسين (عليه السلام) تأكيده في نفوس الأمة في زمانه وفي حركة الزمن كله.

لقد كان فقيدنا الخطيب المجدد أديباً في المستوى الرفيع من الثقافة الأدبية، وشاعراً مبدعاً في قصائده التي تنوّعت في مختلف قضايا الأمة المصيرية، وفي أوضاعها الاجتماعية والسياسية، وفي مدائح أهل البيت ومراثيهم بطريقة جديدة في مضمونها الإيماني والحركي والولائي، وكان مؤلفاً

في أكثر من موضوع اجتماعي وديني وحركي، فكان مألّف الدنيا وشاغل الناس، وكان الإسلاميّ الحركيّ الذي واكب الحركة الإسلاميّة وأيدها وشارك في دعمها وتأييد قياداتها، ممّا جعل من فقده خسارة كبرى للإسلام والمسلمين.

وأخيراً، فإنّني أحيي القائمين على إقامة هذا الاحتفال المبارك، وأقدّر جهود العاملين عليه، وأرجو أن يكون قاعدةً وانطلاقةً في سبيل تأكيد خطّ الوعي الرساليّ المنفتح الذي كان ينادي به المرحوم الشيخ الوائلي ويتحرّك فيه، ويتكبّد في سبيله المصاعب والمشاق؛ فإنّ ذلك هو الذي يؤكّد كلّ القيم الإسلاميّة التي تحرّك فيها أهل البيت عليه السلام على خطى جدّهم رسول الله ﷺ؛ ليكون الإسلام حيّاً وفاعلاً في صناعة الشخصية الإيمانيّة الرائدة، وليكون قاعدةً تحكم خطوط الحركة في كلّ ميادين الحياة^(٢١).

وسأستعرض في الصفحات التالية عدّة عناوين عالجهما المرجع الراحل السيّد محمد حسين فضل الله (قدس سره) في ما يخصّ السليبيّات التي تثار حول المجالس الحسينيّة.

(٢١) نص كلمة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله التي وجهها إلى مؤتمر تكريم الراحل الكبير العلّامة الدكتور الشيخ أحمد الوائلي الذي انعقد في بغداد، نقلاً عن موقع بينات..



البُعد عن الواقع

من أهمّ مسؤوليّات القائمين على التبليغ الديني رَبُّطُ التعاليم الإسلاميّة بالواقع الفكريّ والسياسيّ والتربويّ والاجتماعيّ والأخلاقيّ الذي يعيشونه، لأنّ الإسلام أولاً وأخيراً هو الدين والشرعية التي رسم الله تعالى معالمها حين بعث نبيّه الأكرم ﷺ، وحين أنزل معه القرآن الكريم نوراً مبيناً، كلّ ذلك بهدف إخراج الناس من ظلمات الواقع الذي يعيشونه إلى نور الحياة التي يتزوّدون من خلالها للحياة الآخرة، ويقتبسون من نورها نوراً في ظلمات الآخرة.

ولذا كان حبس الإسلام في تعاليمه وشرائعه في غياهب الماضي، والاستغراق فقط في مفردات التاريخ والأبعاد النظرية المجردة والترفّ الثقافي، واحداً من أكبر الأخطاء التي قد يُقدّم عليها القائمون على الشأن التبليغيّ والإرشاديّ أيّاً كان عنوانهم أو موقعهم.

ومن هنا كان إصرار علمائنا الذين أدركوا هذه الحقيقة وتحملوا مسؤوليّتها، على أن تكون مجالس العزاء الحسينيّ في مقدّمة الوسائل لتحقيق هذه الغاية ما أمكن، على الرغم من معارضة أصحاب الرأي الآخر الذين يريدون لهذه المجالس أن تتأى بنفسها عن هذه العناوين، وتبقى مقتصرة على استعراض أحداث الثورة الحسينيّة في أبعادها المأساوية لا غير.

بل إنّ هؤلاء العلماء الأعلام يؤكّدون على أنّ اهتمام أهل البيت ﷺ في إقامة مجالس العزاء الحسيني - ولو بصورتها البسيطة - لم يكن بعيداً عن

غرض تحريك واقع المسلمين وفق المنهج الإسلامي، حتّى في ظلّ الظروف العvisية التي كان يعايشها بعضهم تحت الرقابة والحصار من قبل بني أمية ثم بني العباس.

قال الإمام الخميني (قدّس الله نفسه الزكية) في هذا الخصوص: «لا تحسبوا أنّ الغاية من اجتماعنا في المجالس الحسينيّة هي البكاء أو التباكي على الحسين (عليه السلام) فقط؛ فلا الإمام بحاجة إلى البكاء، ولا البكاء في حدّ ذاته يجدي في شيء، إنّما في المجالس تجمّع للناس، وهنا يكمن الهدف السياسي منها.. والمعطى السياسي هو أهمّ معطيات تلك التجمّعات، وهذا ما يفسّر لنا طلب بعض الأئمّة من الحاضرين قراءة المجلس ورغبتهم في الاستماع لمصيبة أبي عبد الله الحسين (عليه السلام). كذلك ليس اعتباراً أنّ تنصّ رواياتهم على علوّ أجر مَنْ بكى أو حتّى تباكى على مصابهم ومظلوميّتهم، فالقضية ليست قضية بكاء محض أو تباكٍ صرف، وإنّما هي قضية السياسة بعينها التي أراد الأئمّة من خلالها توحيد الأمّة وتحسينها من الزلل»^(٢٢).

إلا أنّ من المؤسف أنّنا نلاحظ على كثير من مجالس العزاء الحسيني بعدها عن معالجة القضايا الحيائيّة التي تمسّ واقع الناس، وعن محاكاة اهتماماتهم اليوميّة، وعلى الأصعدة كافة، واقتصارها على سرد المفردات التاريخيّة مع شيء من الطرح السطحيّ لتعاليم الإسلام.. وحتى إن ارتقت في الطرح وتعمّقت، لم تخرج عن إطار المعالجات النظريّة المجرّدة التي لا يخرج من خلالها المستمع بفائدة عملية مباشرة، أو تُفرقه في عالم مثالي لا يستطيع من خلال معطياته أن يترجمها إلى واقع ملموس.

(٢٢) روح الله الموسوي الخميني: قيام عاشوراء در كلام وبيام امام خميني (ثورة عاشوراء عند الإمام الخميني)، والنص مجتزأ من كلمة ألقاها سنة ١٩٨٠م.

ومن أسباب ذلك:

- ١ - الحصيلة العلمية الحوزوية والثقافية الضعيفة عند شريحة من قراء العزاء.
 - ٢ - إهمال التنقيف المستمر من قبل الخطباء.
 - ٣ - عدم الاطلاع الكافي على معطيات واقع المجتمع (بالنسبة إلى الخطباء الوافدين).
 - ٤ - المصلحية المادية عند بعض قراء العزاء، والتي تدفعهم للتخوف من طرح ما من شأنه حرمانهم من التكسب من خلال هذه المجالس مستقبلاً.
 - ٥ - الظروف الأمنية غير المواتية بالنسبة لقراء العزاء الوافدين.
 - ٦ - قناعة القائمين على المجالس أو الخطباء بضرورة إبقاء هذه المجالس في طابعها المقتصر على الطرح التاريخي الساذج.
- إننا عندما ندرس حركة النبي ﷺ وحركة الزهراء والأئمة والعقيلة زينب عليها السلام نجدها منطلقة في مواقع تحديات عصرهم، لأنهم كانوا يعملون على إقامة الحجة على كل الناس، بحيث يبادرون إلى كل شبهة أو مشكلة في الجوانب العقيدية والفقهية والسياسية والاجتماعية، بحيث نجد أن لكل واحد منهم كلمة ونقداً وتوضيحاً وما إلى ذلك. وقد سار علماؤنا السابقون، وفي مقدمتهم الطوسي والمفيد والمرتضى في هذا الاتجاه، فكانوا يملكون ثقافة موسوعية تجعلهم يشاركون في كل ما أثير في مرحلتهم من قضايا الفكر في الدائرة الإسلامية العامة أو المذهبية الخاصة، أو في الدوائر الأخرى المتنوعة.
- أما اليوم فإننا نواجه في عصرنا هذا التحديات بأكثر مما واجهتها العصور

السّابقة، لأنّ التحدّيات الفكرية الموجودة في الواقع المعاصر لم تكن موجودة بهذا العمق والامتداد والتنوّع والكثرة، ولم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ، ولا في زمن الأئمة عليهم السلام أو في زمن علمائنا السابقين، وذلك بلحاظ تطوّر وسائل الإعلام والاتّصالات، ممّا جعل المسألة تنطلق في حجم العالم كلّهُ.

ولذا، فإنّ من المفترض على من يتحمّل مسؤوليّة الخطابة الحسينيّة أن يبقى في حالة مستمرّة من الدراسة والتفكير والبحث والحوار مع الآخرين من حوله كي يستطيع أن يقدّم الكلمة المسؤولة، ويكون حجّة لله على الناس، بدلاً من أن يكون حجّة على الإسلام لمصلحة أعدائه، لأنّ الإنسان الذي لا يملك ثقافة يستطيع من خلالها أن يدافع عمّا يمثّل وعمّا يدعو إليه فإنّه سوف يؤدّي إلى ضعف ما يمثّل وما ينتمي إليه.

المسؤولية تجاه الدعوة

وقد طرح المرجع الراحل جانباً من رؤيته حول شخصيّة ومنطلقات من ينهض بمسؤولية الدّعوة إلى الله سبحانه، سواء عن طريق المنبر الحسيني أو أيّ وسيلة أخرى، وذلك في كتابه (خطوات على طريق الإسلام) ليؤكد من خلال ذلك على أهمية امتلاك الثقافة المسؤولة التي لا تحلّق في عالم النظريات، ولا تستغرق في القضايا المجرّدة، بل هي الثقافة التي يُراد من خلالها خدمة الهدف الرسالي. ثم عرّج على أسباب تخلف المسلمين في هذا الاتجاه وما نجم عنه من آثار سلبية جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتغيير إلى الأفضل والإصلاح والدّعوة إلى الله عناوين جامدة ومجرّد تكاليف شرعيّة يريد المكلفون أن يسقطوها عن كواهلهم فحسب.

قال (قدّس سره) في ضمن حديث طويل في هذا الإطار وأقّدمه مختصراً: «كانت الثقافة الدينيّة، فيما مضى من عصور الإسلام الأولى والوسطى، قضية

الإنسان المسلم الشخصية التي ينهل منها ما ينهل ليمارس الإسلام في حياته عن معرفة ويدعو إليه عن وعي، وكانت دعوته للإسلام - كممارسته له - عملاً عفواً ينطلق من إحساسه العميق بأن الإسلام - في وعي الإنسان المسلم - حركة في الداخل تحرك فكره وروحه وعمله، وحركة في خارج الذات، تحرك الناس نحوه بالدعوة والبلاغ، وتملاً الحياة من حوله بالحيوية والقوة فكان من نتيجة ذلك أن رأينا الداعية يتمثل في أكثر من نموذج من نماذج المجتمع، فتجد التاجر الذي يضرب في أقاصي الأرض ليطلب الرزق ويجتهد من أجله، لا يترك أمر الدعوة إلى الإسلام ولا يجد في التجارة شغلاً عنها، بل يعتبر شغله الشاغل الذي يجد في عملة التجاري فرصة له للانطلاق به في طريق التكامل والامتداد والانتشار، وتجد المحارب الذي يستغل فترات الهدنة أو السلم ليشعر أن مهمته لم تنته بانتهاء الحرب، بل يجد أن مسؤوليته بدأت بذلك، لأن قضية الحرب ليست هي فتح البلاد، للسلطة وللاستعمار، بل هي من أجل إفساح المجال لكلمة الله أن تُقال وتُمارس دورها في الإقناع بحرية وقوة وانفتاح. وقد أصبح الإسلام من خلال ذلك دعوة تمتد إلى أقصى العالم من البلدان التي لم تصلها الفتوحات ولم يبلغها الحكم الإسلامي في بدايات عهد الإسلام، بل ربما انطلقت الدعوة من المسلمين المغلوبين على أمرهم، للغزاة الذين يغزون البلاد الإسلامية بطريقة وحشية مدمرة، كما حدث ذلك بالنسبة إلى المغول الذين هاجموا العالم الإسلامي فدمروا كل شيء فيه، وسيطروا على مقدراته، ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوا فيه بشكل عفوي يلفت الأنظار، بفضل الدعاة المسلمين الذين شعروا بأنهم لا يستطيعون مقاومة الغزاة من الخارج بالقوة العسكرية، فقاوموا من الداخل بالعقيدة الإسلامية، ففتحوا قلوبهم لله، وأفكارهم لشريعته، مما جعل الغزاة البرابرة يتحوّلون للإسلام ويعملون له، ويحاربون من أجله. يقول توماس أرنولد في كتابه (الدعوة للإسلام): لا يعرف

الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوةً من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على كل ما كان بها من مدنية وحضارة. على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال واستطاع بدعائه أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه.

وربما كان السبب في ذلك، الشعور العميق بالمسؤولية تجاه الدعوة الإسلامية، لدى كل مسلم عادي، من دون أن يكون مكلفاً من أية هيئة رسمية أو أي مؤسسة دينية في عدة نقاط:

١- الحديث النبوي الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». فقد وعاه المسلمون وفهموه كقاعدة إسلامية عامة تثير فيهم حس المسؤولية كأعمق ما يكون، وأرحب ما يمكن، حيث يجد الإنسان المسلم - من خلال هذه القاعدة - أن دوره في المجتمع المسلم ليس دور الفرد الذي تحكمه مسؤولية الآخرين، أو الذي يتلقى المسؤولية من الخارج، ليكون دوره سلبياً يمارس فيه عملية الآخذ دون أن يتسلم زمام المبادرة، في شيء من شؤون الحياة العامة، بل هو دور إيجابي فعال ينطلق من صفته جزءاً من كل مترابط، يرتبط أفرادُه برابطة عضوية لا انفصال فيها ولا انفصام، فإن ذلك هو الذي حدّد له موقعة الحركي داخل المجتمع، ليجعله يشعر بمسؤوليته عن كل القضايا التي يمتلك المقدرة على القيام بها، أو المشاركة ببعض منها مشاركة فعلية، مما يجعله يفكر في المجتمع، ومعه، في كل شيء يهمّه أو يتعلّق به ويصبّ في قضاياه المصيرية الكبيرة، ثم يبدأ عملية الممارسة من موقع مسؤوليته الإسلامية الداخلية التي تستمدّ رقابتها الواعية من الإحساس بوجود الله ورقابته في كل شيء.. وعلى ضوء ذلك فإن الإنسان المسلم، لا يعاني من الإحساس بالازدواجية

بين شخصيته الفردية وبين شخصيته الاجتماعية لأنّ كلتا الشخصيتين خاضعتان في تكوينهما وحركتهما للقواعد الإيمانية التي تحدّد لكلّ منهما مجالات اللقاء والاندماج ومجالات الافتراق الذي يغذي كلاهما وينمّيه، من دون أن يؤدي إلى التناحر والتصادم، فالشخصية الفردية منطلقاتها في إطار الحاجات الذاتية التي ينمّي فيها جسمه وعقله وعاطفته، ويسمح فيها لنزواته الشخصية أن تعبّر عن نفسها في ألوان من اللهو البريء، أو يقيم بعض العلاقات الخاصة التي لا تترك أيّ تأثير سلبيّ على أوضاعه الاجتماعية العامّة، أما الشخصية الاجتماعية فلها منطلقاتها في كلّ العلاقات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تتعدّاه إلى غيره، لأنّها تتّصل بأفكار الآخرين واقتصادهم ونشاطهم الاجتماعي، وتنعكس على أوضاعهم العامّة، وقضاياهم المصيرية من خلال ذلك يلتقي الإنسان المسلم بقضية الدّعوة، ليشعر بارتباطها بمسؤوليته الاجتماعية، لأنّها تمثّل الامتداد البشري والحضاري لقوّة الأمّة ووجودها وحضارتها، ممّا يجدّد لها حياتها ويمنحها طاقة جديدة من أجل مستقبل جديد.

٢- الآيات القرآنية الكثيرة: التي تجعل الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤوليّة المسلمين في كلّ مكان، كلّ المسؤوليّات والواجبات العامّة التي يُطلق عليها الفقه الإسلامي صفة (الواجبات الكفائية) التي تُوجّه للأمّة بشكل عام، فلا تختصّ بفرد معيّن، فإذا قام بها البعض الذي يحقّق لها غايتها سقطت عن الكلّ، وإذا لم يقم بها أحد، عَصَوْا جميعاً وتحملوا مسؤوليّة إهمالها أمام الله، ولذلك اعتبروا الدّعوة إلى الله وإلى الإسلام مسؤوليّة كلّ مسلم وقضيّته الأساسيّة التي تمتدّ في الحياة الإسلاميّة من جذورها الضاربة في أعماق النفس، ولم يخصّوا بها أحداً، فيعتبرونها مسؤوليّة الخاصّة التي لا ترتبط بهم من قريب أو من

بعيد، بل قد ترتفع القضية إلى أبعد من ذلك، فلا يقف العمل عند حدود المسؤولية القانونية الإلزامية التي تُثقل كاهل الإنسان، وتشعره بالتعب والعناء، بل كانت تمثل بدلاً من ذلك الرغبة المحيية التي يتجه الإنسان إلى تحقيقها بمحبة وسرور يحسّ معهما بلذة التعب وحلاوة الجهود كأي نشاط شخصي يرتبط برغبات الذات وحاجاتها الطبيعية لأنهما يرتفعان به إلى الله في مدارج القرب والرضا، ويحققان له هدفه بالوصول إلى الدعوة التي يؤمن بها إلى كل مكان في العالم، وإلى كل شخص في الحياة. ومن هذه الآيات التي تركّز على جانب شمول الدعوة قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وقد نلتقي في هذا المجال، ببعض الآيات الكريمة التي تجعل من هاتين الصفتين أساساً للقيمة الإنسانية للأمة كلها، وذلك هو قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠].

٢- شريعة الجهاد: فقد كان الجهاد الإسلامي يشمل المسلمين جميعاً، على سبيل الواجب الكفائي من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، والدفاع عن الإسلام ضد قوى الأعداء من الكفار والمرتدين وإفساح المجال أمامهم ليمارسوا دورهم في الدعوة من موقع الحرية والقوة، والانتصار للضعفاء والمضطهدين من المسلمين، فكانت الممارسة الإسلامية تجعل كل مسلم جندياً من أجل الإسلام، ممّا يخلق في وعيه روح الجندية للدعوة، باعتبارها مسؤوليته التي يقاتل من أجلها ويضحّي بنفسه في سبيلها، فكيف لا يعمل من أجل انتشارها وامتدادها وإيصالها إلى كل مكان وإلى كل إنسان.. وقد أشرنا في بداية هذا الحديث إلى أنّ الجندي المحارب يتحوّل في فترات الهدوء والسلام إلى داعية متحرّك ينفذ إلى الدّاخل بالفكر والمحبة،

ويدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتالي هي أحسن، ولا يقتصر على دعوتهم باللسان، بل يمتد ذلك إلى السلوك العملي الذي يجعل من الإنسان المسلم إنساناً حياً متجسداً يتحرك على الأرض، ليُشاهد الإسلام في صورته التطبيقية على الطبيعة انطلاقاً من الحديث الإسلامي الشريف: «كونوا دعاة لنا بغير أسنتكم ليروا منكم الصدق والأمانة فإن ذلك داعية».

٤ - الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على الثواب الأخروي الذي يمنحه الله للناس الذين يعملون على هداية الكافرين والضالين والمنحرفين إلى الطريقة المستقيمة كما في الحديث النبوي الذي خاطب به النبي محمد ﷺ الإمام علياً عليه السلام عندما بعثه إلى اليمن.. فقد ورد في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام بعثني رسول الله ﷺ، إلى اليمن فقال: يا علي، لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت».

شخصية الداعية المسلم

قد يكون السبب في هذه الروح، هذه الأمور كلها، أو غيرها مما يضاف إليه من الدوافع الذاتية التي تحدث لدى الإنسان كنتيجة لقوة الإيمان التي تجعل العقيدة حالة شعورية يندفع الإنسان إلى تليتها وخدمتها بعفوية ومحبة، فإن كل هذه العناصر قد استطاعت أن تخلق الشخصية الداعية المسؤولة، التي لا تستمد حركتها من ارتباطها بمؤسسات تقليدية أو رسمية بل تستمدّها من ارتباطها بالينبوع الروحي المتدفق من الإيمان بالفكرة، وبالخط المستقيم الذي تمتد الفكرة بامتداده، وقد كان من الطبيعي لهذا كله أن لا يجد هؤلاء العاملون

- في عملهم - ما يستحقون عليه أجراً مادياً، كضريبة مفروضة على المجتمع، لقاء ما قاموا به من خدمات في مجال الدعوة، إنهم لا يشعرون بمسؤوليتهم أمام المجتمع، كوجود منفصل متميز تماماً، كما يكون موقع العامل من صاحب العمل، بل يشعرون بأن نتائج العمل تعود إليهم كجزء من المجتمع، يعيش التكافل والتضامن والتعاون في كل مجالاته، ثم.. كأصحاب عقيدة، عملوا لعقيدتهم التي يحبونها ويؤمنون بها.. ثم كعمال كادحين إلى الله فهم يقصدون الله في عملهم، ويعملون للحصول على ثوابه الذي وعدهم به: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] .

وقد كانوا يقرأون الآيات الكريمة التي جاءت على لسان الأنبياء في القرآن الكريم التي تعبّر لنا عن موقف النبي ﷺ مع قومه ليعلن لهم بكل قوة وبكل صراحة أنه لا يطلب أجراً على الدعوة، لأن أجره على الله، بل ما يطلبه من الناس أن يتجاوبوا مع دعوته ويتعاونوا معه في تنفيذها وانتشارها، فكانت قراءتهم لهذه الآيات، تخلق عندهم انطباعاً بأن شعارات الأنبياء هذه لن تنطلق من مركزهم كأنبياء يتصلون بالله عن طريق الوحي، بل انطلقت من موقعهم كدعاة يبلغون رسالات الله في الأجواء التي لا توحى للناس بأنهم يقدمون للناس الكلمة بالثمن المعين.. بل توحى لهم بأن كلمة الله، ليست من السلع التجارية، بل هي من معدن الرسالات التي تنطلق من روح العطاء، لتدفع الإنسان إلى العطاء الكبير في الكلمة والفكر والعمل من دون مقابل، وبذلك يرون في هذه الشعارات خطأ عريضاً للدعوة ومنهجاً عملياً للدعاة، كل الدعاة، في أن يتحركوا في دعوتهم من موقع الإحساس بالمسؤولية المدفوعة الثمن من الله لا من الناس، إن كانوا ممن يبحثون عن الثمن.. أما تأمين حياتهم ومستقبلهم المادي فقد يكون الخير لهم أن يفتشوا عنه في مجال آخر غير مجال الدعوة لأن أبواب الرزق ومجالاته كثيرة في الحياة، ولا تنحصر في هذا المجال بعينه.

الذاتية في عصور الانحطاط

ذلك هو بعض ما عاشه المسلمون فيما مضى، أو بالأحرى ما عاشته جماعات كثيرة منهم في الماضي، انطلاقاً من إيمانها بالله وبرسالته، الذي انعكس على نشاطها في الدّعوة، ممّا شارك في امتداد الإسلام وانتشاره في أرجاء كثيرة من العالم.

ودخل المسلمون عصور الظلمات.. واستسلموا لآفاق الضيقة من الحياة، فوقّعوا في قبضة الجهل والتخلف، وفقدوا النور الذي يحقّق لهم النفاذ إلى حياة الآخرين، وتحوّلت الاهتمامات إلى الذات تُفرّق فيها كلّ همومها وتطلّعاتها، فللذات دور كبير في الحياة الدنيا التي تعمل للحياة وللراحة الجسدية والنفسية، فتسخر كلّ النصوص التي تدعو إلى المحافظة على الحياة والابتعاد عن إلقاء النفس في التهلكة لتحمي بها نفسها من الانطلاق مع أيّ تحرّك لحساب المصلحة العامّة.. وقد صرّح بعض الفقهاء المحقّقين، بأنّه يُقال بالحرمة لو أراد الكفار مُلكَ بعض بلدان الإسلام أو جميعها في هذه الأزمنة من حيث السّلطنة مع إبقاء المسلمين على إقامة شعار الإسلام وعدم تعرّضهم في أحكامهم بوجه من الوجوه، ضرورة عدم جواز التفرّغ بالنفس من دون إذن شرعي بل الظاهر أنّه راجح في النواهي عن القتال في زمن الغيبة مع الكفار في غير ما استثنى، إذ هو في الحقيقة إعانة لدولة الباطل على مثلها. نعم لو أراد الكافر محو الإسلام ودرس شعائره وعدم ذكر محمد ﷺ وشريعته فلا إشكال في وجوب الجهاد حينئذ ولو مع الجائر لكن بقصد الدّفع عن ذلك لا إعانة سلطان الجور.

فنحن نرى في هذا المجال، أنّ هذا الفقيه الكبير لا يمانع من الرضوخ لسلطان الكافر والشّرك مادامت حرّية المسلمين مؤمّنة في شعائهم

وعباداتهم وأحكامهم، ولا يجوز للمسلمين أن يقاوموه لأنه تغرير بالنفس، لأن قضية العزة الإسلامية لا تمثل - في مفهومه - شيئاً كبيراً في حساب الإسلام، فتبقى القضية قضية شرعية، من دون أن يكون للإنسان أي اعتبار في ذلك، أو للنتائج العملية التي سينتهي إليها الاستعمار في البلاد.. مع أننا نجد في شعارات كربلاء، التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام، تأكيداً على جانب العزة والكرامة، كمنطلق من منطلقات الثورة كما في قوله عليه السلام: «ألا إن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والدلة، وهيهات منا الدلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت ونفوس طهرت من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام...».

إننا لا نملك تفسيراً لهذا الاتجاه في معالجة القضايا العامة، سوى الإغراق في الجوانب الفردية في الحياة والابتعاد عن الجوانب العامة التي تفتح النوافذ على الآفاق الواسعة وتواجه الواقع بعقلية منفتحة واعية تحسب لكل حالة حسابها الدقيق في إطارها الشامل، ولا تعتبر الذات عالمها الكبير في دنيا الناس.

أما في الحياة الآخرة، فقد بدأ الاتجاه في النظر إليها نظرة ذاتية، فانطلق التركيز على الجوانب العبادية الفردية الخاصة التي تجعل طريق الدار الآخرة، لا تمر بالمجتمع والحياة العامة بل تمر بالمسجد فقط لتكون الآخرة للعابدين الذين يعزلون عن كل نشاط عملي في حياة الأمة.

الصورة القلقة

وقد شاركت هذه النظرة، في إفساح المجال للفكرة القائلة، إن مسؤولية علماء الدين أن يتعلموا، ويعلموا العلم ويبدلوه لمن يطلب ذلك منهم ويقصدهم ويسألهم عن أحكام الدين وتعاليمه، فيجيبونه بالحكم الذي يتعلّق بعمله من دون زيادة ولا نقصان، أو توضيح للفكرة، أو تقريب لآفاقها إلى فكره ووعيه، لأن

ذلك ليس من واجباته، لأنّ واجبه أن يسمع ويطيع من دون جدال، وليس من واجباتهم، لأنّ كلّ واجباتهم، أن يشرحوا للإنسان حكمه الشرعيّ فقط..

وقد يستمرّ بعضهم في عزلته العاجية التي يخلد فيها إلى الراحة والسكينة للحصول على مزيد من التأمل الذاتي أو لاجترار الآلام أو الأفراح - لا فرق - وبيتعد بذلك عن أحداث الحياة ومشاكلها، فلا يشعر بها، ولا يحاول أن يفهمها أو لا يستطيع ذلك لو أراد.. ولكنّه - في المناسبات الطارئة - يجلس ليصدر أحكاماً على الحياة وقضايا المصير، بطريقة سطحية مرتجلة تطوف في عالم الخيال، أكثر ما تنطلق من صعيد الواقع، ثم تنهاوى صريعة من دون فهم أو وعي.

وينعكس ذلك على ثقافتهم الاجتماعية والسياسية، وربّما الدينية المتعلقة بواقع الحياة المتحرّك وتحدياتها المتطورة.. فهم لا يحاولون ملاحقة قضايا العصر ومشاكله، ولا يعملون على تنمية ثقافتهم الإسلامية والاجتماعية وغيرها بالمستوى الذي تستطيع أن تواجه فيه كلّ ألوان التحديات المعاصرة.. لأنّهم لا يشعرون بالحاجة إلى ذلك، ما دامت حياتهم فارغة من التحديات، وأفكارهم مغلقة على الماضي فلا تنفتح على الحاضر ولا على المستقبل، ونشاطاتهم خالية من المشاكل.. لأنّها لا تلامس وجدانهم.. فإذا اصطدموا بالتحديات، أو التقوا بالمشاكل، فإنّهم يكتفون بردود الفعل السلبية الانهزامية في ذلك كلّ، فاللّعنات هي أحد مظاهر التعبير عن الاحتجاج، والحديث عن آخر الزمان هو التفسير الوحيد للواقع كلّ، والتعوّذ بالله من الشيطان ومن الزمان الذي يكون القابض فيه على دينة كالقابض على الجمر، هو الحلّ المنشود، وهذا ممّا يوحي بالاستسلام للواقع وإظهار العجز - مقدّماً - عن إمكانية معالجته ثم الأمر بالبقاء بعيداً عن ساحة الصراع لأنّ الجلوس على التلّ أسلم، ودفع الضرر المظنون لازم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال.

وقد شاركت هذه الجماعات من الناس في إعطاء الصورة القلقة عن الدين ورجاله من حيث إنه يمثل المواقف السلبية الخائفة، التي لا تقدم للحياة إلا بعض الطقوس والخدمات الدينية فلا تضيف إليها شيئاً يبلغ مستوى كبيراً من الأهمية، وفي اقتناع الممثلين للدين بالرضا بالأمر الواقع، والانسحاب من المعتقد كقيمة كبيرة من قيم القداسة الروحية، حتى تحول الانحراف إلى قيمة كبيرة، من قيم القداسة الروحية، حتى تحول الانحراف إلى قيمة دينية، ترى في اعتزال الحركة، والبعد عن الصراع دليلاً على التقوى والزهد والإخلاص وقوة الإيمان.

الثقافة للإسلام

هل يملك الداعية الذي أوقف حياته على الدعوة إلى الإسلام، أن يجعل ثقافته خاضعة لمزاجه الذاتي فيما يحبه وفيما يرغبه، مما ينفع الدعوة أو يضرها، أو لا يفيدها على الأقل، أو لا يملك من حريته إلا ما يتفق مع حاجة الدعوة في مسيرتها الصاعدة المتحركة؟

ربما يحسب بعض الناس أن الداعية إنسان، له كل ما للناس الآخرين من رغبات ومشتبهات وحاجات ذاتية تنطلق معها نفسه، ويصفوبه مزاجه، وترتاح لها حياته، فيجوز له أن يمارس منها ما لا يحرمه الشرع، وما لا يسخط الله من الأمور المباحة، فإن للنفس أن تأخذ برخص الشريعة، كما أن عليها أن تمتنع عن محظوراتها، سواء في ذلك ما يأكله أو ما يشربه أو ما يلبسه أو ما يقرأه أو ما يتعلمه.. ويبقى له بعد ذلك مجال كبير من الوقت الذي يعمل على أن يستغله في الثقافات اللازمة له في شؤون العقيدة والشرعية.

الحاجة إلى ثقافة هادفة

ولكننا نعتقد أن القضية لا تخضع لهذا الاتجاه في معالجة هذا الواقع، لأننا

لا نطلب من الداعية الإسلامي أن يحصر نفسه في الإطار الثقافي الإسلامي، بالمعنى الذي يحدّد له قراءته في الأمور الإسلامية الخاصّة من كتاب أو سُنّة أو فقه أو غيرها من الأمور التي تتّصل بالعقيدة والشريعة والمفاهيم العامّة.. فنحظر عليه المشاركة في الثقافة الأدبيّة والاجتماعيّة والنفسية والفنية، أو الثقافة العلمية المتعلّقة بشؤون الطبيعة وظواهرها وأسرارها، إنّنا لا نطلب منه أن يحصر نفسه في هذا الإطار الضيّق من المعرفة.. لأنّ ذلك سوف يبعده عن فهم الإسلام نفسه، لحاجتنا الماسّة إلى كثير من هذه الثقافات في تعميق معرفتنا الإسلامية ومدى سلامة حلوله العملية لمشاكل الحياة فإذا لم يكن لدينا بعض المشاركة في قضايا النفس والمجتمع، لم نستطع فهم كثير من التشريعات في الشريعة، أو كثير من الظواهر الفردية والاجتماعية في حياة الناس، وإذا لم نحصل على الثقافة الأدبية التي تتجاوز القواعد النحوية والصرفية والبلاغية لن نصل إلى الحسّ الأدبيّ الصافي الذي يلتقي بالمضمون في صفائه ونقائه من خلال إحاطته بالعناصر الأصليّة التي يكشف فيها الشكل عن طبيعة المضمون، وهكذا في المجالات الأخرى للمعرفة.

بل كلّ ما نحاوله هو أن يكون الداعية هادفاً فيما يأخذه من أسباب الثقافة، فيدرس حاجته منها تبعاً لحاجة الدعوة إلى ذلك، ثم يطبع كلّ ما يحصل عليه من ألوان المعرفة بطابع إسلامي، فينظر إليها بعين مفتوحة على الحياة من خلال ارتباطها بالإسلام، وارتباط الإسلام بها، ويدرس حاجة الدّعوة إلى ذلك، من خلال المجال الذي تتحرّك فيه الدّعوة، فقد تمسّ الحاجة إلى بعض الثقافات التي لا يحتاج إليها العمل من حيث هو دعوة إلى الله، ولكن يحتاج إليها العاملون في حياتهم العملية التي يتحرّكون فيها من أجل المعاش. فلا يجدونها إلا عند الذين يستغلّون حاجتهم إليهم، فيضغطون عليهم من أجل الانحراف، أو يضلّونهم فيما لا خبرة لهم فيه ولا معرفة لهم به، أو يُربكون

خطاهم فَيَدْعُوْنَهُمْ عُرْضَةً لِلْحَيْرَةِ والقلق والضياغ بشكل يدمر طاقاتهم المتطلّعة إلى خدمة الله، في خدمة دينه القويم، فقد يجد العاملون أنفسهم في حاجة إلى أن يأخذوا بأسباب هذه الثقافات، لينقذوا إخوانهم من خطر الوقوع في التجربة المريرة، فيبعدوهم عن خطوات الضلال، أو ليدفعوا الآخرين إلى أن يفتحوا على الإسلام من خلال انفتاحهم على العلاقات الثقافية بالعاملين للإسلام، كما نلاحظ في الطريقة الذكية المدروسة التي انطلق بها التبشير في البلاد الإسلامية وغيرها عندما كان يلبس الأفتنة العلميّة التي تُخفي وراءها الطابع التبشيري لأصحابها، فيدخلون المعاهد والمراكز التربويّة كمدرّسين للفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات وغيرها ممّا تحتاج إليه البلدان المتخلّفة في بناء حياتها من جديد على أساس من العلم والمعرفة، فتكون النتيجة أن تلتقي العلوم الطبيعيّة والرياضيّة وغيرها بالتبشير على صعيد واحد، من أجل صنع شخصيّة المواطن على صورة التبشير، في وسائله وأهدافه الدينيّة والسياسيّة.. ونحن لا نقلّل من هذا الأسلوب، بل نشعر بنتائج الكبيرة على الطبيعة.. وربّما كان المسلمون الأوّلون قد أخذوا ببعض نصيبهم من ذلك فكانت مشاركتهم في كثير من علوم الفلسفة والطبيعة سبيلاً إلى دخولهم إلى كثير من الشعوب والأمم بصورة مباشرة، بارتباطهم بهم شخصياً، أو بصورة غير مباشرة، بارتباط ثقافتهم بهم في عملية تفاعل وتأثر حضاري يركز على الثقافة العامة والخاصة.

التّرف الفكري

إنّنا لا نريد أن نحدّد للداعية ثقافته، بل نريد له أن يدرس موقعه، ويتّخذ لنفسه من الثقافة ما يتناسب مع هذا الموقع من ناحية الحاضر والمستقبل، وأن يبتعد - مهما أمكن - عن كثير من أنواع المعرفة التي تدخل في إطار

الترف الفكري الذي عبّر عنه النبي محمد ﷺ في بعض أحاديثه مع أصحابه، فقد روي عنه أنه دخل ذات يوم على المسجد فرأى المسلمين مجتمعين حول رجل يحدثهم فيستمعون إليه بإصغاء وشغف فقال لهم النبي ﷺ «ما هذا؟» فقالوا: علامة. فقال ﷺ: «وما العلامة؟» فقالوا إنه عالم أنساب العرب وأيامها وأشعارها. فقال لهم النبي ﷺ: «ذلك علم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله، إنما العلم ثلاثة: آية محكمة وفريضة قائمة وسنة متبعة».

ولعلّه من الطبيعي للإنسان أن لا يأخذ بأسباب الترف، ويترك ما هو بحاجة إليه، لأنّه يكون بمثابة الإنسان الذي يبحث عن الكماليات وهو بحاجة إلى الضروريات، أو الذي يطلب الترف، وهو لا يمسك نفسه من السقوط تحت وطأة الجوع.

إنّ الانطلاق مع الرغبة في الترف الفكري يفوّت على الإنسان كثيراً من الجهد الذي ينبغي أن يصرفه فيما يحتاج إليه من معرفة عملية مرتبطة بحركة الدّعوة الإسلامية في الحياة، لأنّ الإنسان لا يملك الوقت الذي يسمح له باستيعاب المعرفة وشمولها لكلّ شيء، فلا بدّ له من الدخول في عملية الاختيار وتقديم الأفضل فالأفضل، أو الأشدّ حاجة حسب الأفضليات ليستطيع الإنسان أن يصل إلى هدفه في أقلّ قدر ممكن من الوقت والجهد معاً^(٢٣).

لا نستغرق في تاريخ الماضين

«نحن نتحدّث غالباً عن كل الانتصارات في التاريخ - ويحاول البعض أن يجعله تاريخاً عربياً، ولا عقدة لنا من العروبة عندما تكون في مسيرة الإسلام - عن انتصارات بدر وأُحد والأحزاب.. وتنطلق كلّ الأمجاد في الفتح الإسلامي، وما إلى ذلك، وتأتي إلينا كربلاء في كلّ أجواء هذا التّأريخ.. ونستغرق في

(٢٣) محمد حسين فضل الله: خطوات على طريق الإسلام، ص ٦٩-١٠٢ مع الاختصار.

التأريخ، ولكن هل سأل أحدٌ منا، نفسه، وهو يقف أمام كل هذا التأريخ: الآخرون صنعوا تأريخهم، فكيف نصنع تأريخنا؟

هل تعني الانتصارات التي قام بها المسلمون في مواجهة الشُّرك، والظُّلم، والاستكبار، والاحتلال لنا شيئاً؟ هل تعني هزائمنا التي عاشت في تأريخنا لنا شيئاً؟ هل يكفي أن نصقّق للذين فتحوا؟ أو نصقّر للذين انهزموا؟ أم أنّ علينا أن نأخذ من كل هذه الانتصارات والهزائم، ما يمكن لنا أن نحركه في واقعنا، لنصنع نصراً هنا، ونمنع هزيمة هناك، من خلال دراسة كل نقاط القوة والضعف في حركة التأريخ؟

انطلاقة النبي

لقد كانت حركة رسول الله ﷺ من أجل أن يفتح عقول الناس إلى الله، وحياتهم على الإسلام، وكانت كل قضيتته أن يحطّم هذا التحجّر العقلي، والعاطفي، والعملّي، وكان يريد للإنسان عندما يؤمن بالله ويوحّده، أن يعيش في آفاق الله فينطلق في رحاب الكون كله، ليفكّر ويكتشف، وليفتح في كل يوم أفقاً جديداً.. ووقف الآخرون أمامه.. واضطهدوه، واتّهموه، وشتموه، وكادوا أن يقتلوه، وحاربوه حرباً لا هوادة فيها ليسقطوه، وخاض الحروب كلها.. الحرب الثقافية، والعسكرية، والاجتماعية، وغيرها، وانتصر، وانطلق حتى دفع بالإسلام إلينا^(٢٤).

لا قداسة للتأريخ بذاته

«والله علّمنا أن لا ننظر للماضي نظرة تقديس، إلّا إذا كان ما في داخله يملك قداسة في طبيعته ومضمونه. ولهذا أراد الله سبحانه لكلّ جيل عندما يقف أمام أفكار الجيل الذي سبقه، أو عاداته، أراد له أن لا يحني عقله ويخضع إرادته باعتبار أنّ هذه عادات الآباء والأجداد، ولأننا نرتبط بهم بارتباط عاطفي، فالله يتحدّث

(٢٤) محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، ص ١٢١.

عن هؤلاء الجامدين الذين يريدون أن يجمّدوا التاريخ عند مرحلة من المراحل، عندما يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة] ويجيبهم الله على لسان رسوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ليكونوا آباءكم! ليكونوا في أعلى درجات المحبة! لكن مَنْ قال إنَّ الأبوة تعني عقلاً معصوماً؟! وإنَّ الجيل الماضي يعني الجيل الذي يفتح على الحقيقة؟! فقد يكون آباؤنا يعيشون حالة من التخلف تفرض نفسها، على عقولهم، وعاداتهم، وتقاليدهم... فالمسألة أن لهم منّا المحبة والاحترام، ولكن عندما نريد أن نحرك حياتنا في الواقع، فنحن مسؤولون أن نفكر بطريقة مستقلة، وأن نناقش كل شيء، وإذا كان آباؤنا قد انطلقوا من خلال قناعاتهم، فعلينا أن نركّز قناعاتنا على ما نؤمن به، ولذلك لا بدّ لنا أن نفكر كما فكروا، وأن نناقش كما ناقشوا (وكم ترك الأول للآخر)!

لا تقتلوا عقولكم

لا بدّ لنا عندما نعيش حاضرنّا، ونخطّط لمستقبلنا، أن نعمل على أساس أن ننتج عقولنا، لأنّني أخشى أنّنا جمّدنا عقولنا وربّما ينطلق الواحد منّا ليقتل عقله، عندما يكفّ عن أن يستعمله، ويحرّكه، وعندما يقول للآخرين: فكّروا لي، ولا يقول لهم: فكّروا معي، والآخرين يفكرون على طريقتهم، ومن خلال خلفياتهم ممّا قد لا يمثل الحقيقة.

المعادلة الإنسانية أن نقول للآخرين فكّروا معنا، لنفكر معكم، فكّر ينضمّ إلى فكر، لتنتقل خصوصيّتنا العقلية مع خصوصيات عقلية أخرى، لتتحوّل، ولتتكامل في نهاية المطاف»^(٢٥).

إدخال الإسلام في العصر

«ومن الطبيعي أن مثل هذا الاتجاه يفرض على المبلّغين، من علماء وخطباء، أن يعيشوا الثقافة الإسلامية بكل عمقها وامتدادها، وثقافة عصرهم في كلّ القضايا التي تحكم العصر وتمثّل روحه وحياته، لأنّ المطلوب هو أن نعمل على إدخال الإسلام في العصر، ولما كان التشييع هو الخطّ الإسلاميّ الأصيل، فلا بدّ لنا أن ندخل التشييع في العصر، بحيث يعيش عصرنا في مختلف مواقعه الثقافية والسياسية، روح الإسلام روح أهل البيت عليه السلام، وهذا يفرض علينا أن نعيش حالة طوارئ ثقافية، نوصل فيها الثقافة، ونميّز فيها بين الغثّ والسمين، وبين الصحيح والفساد، لأنّ ذلك هو الذي يمكن أن يجعلنا نلتقي بكلّ الأجيال في هذا المجال.

مواجهة العصر في مدى الرسالة

على ضوء هذا فإنّ المسألة التي تفرض نفسها هي أنّنا نتحمّل الآن، في كلّ حوزاتنا ومجالسنا، ما تحمّله النبي صلى الله عليه وآله في حركة الدعوة إلى الله، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يواجه كلّ التحدّيات التي توجّه إليه في دعوته، والقرآن قد أرخ لكلّ الشبهات التي كانت تُوجّه للوحدانيّة والنبوّة، ولكثير من المفاهيم التي جاءت بها النبوّات، وبذلك فتحن نعتقد - من خلال ذلك كلّ - أنّ النبي صلى الله عليه وآله أطلق الدّعوة في تحدّيات عصره، وواجه بالموعظة والحوار، وبكثير من المبادرات والأجوبة، كلّ القضايا الفكرية والسياسية المثارة في ذلك العصر، في داخل الواقع الإسلامي وخارجه، وأجاب عنها، وهاور الآخرين من خلالها.

وعندما ندرس الأئمّة عليهم السلام، فإنّنا نجد أنّهم كانوا يواكبون حركة عصرهم لأنّهم كانوا - وهم حُجج الله في عبادته - يعملون على أن يُقيموا الحجّة على الناس، من المعاندين والضالّين والمنحرفين، بحيث يواجهون كلّ شبهة، أو

مشكلة في الجوانب العقيدية، والفقهية والسياسية، والاجتماعية، بحيث نجد أنّ لكلّ إمام كلامه نقداً وتوضيحاً، وما إلى ذلك، وخصوصاً في عهد الأئمة الباقر والصادق والكاظم والرضا (عليهم السلام)، لأنّ التاريخ ترك لهم تراثاً كبيراً يختلف عن الأئمة الآخرين (عليهم السلام) باستثناء الإمام علي (عليه السلام).

وقد سار علماؤنا السابقون، وفي مقدّمتهم الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والسيد المرتضى، في هذا الاتجاه، فكانوا يملكون ثقافة موسوعية، بحيث جعلتهم يشاركون في كلّ ما أثير في مرحلتهم من قضايا الفكر في الدائرة المذهبية أو العقيدية، أو في الدوائر الأخرى المتنوعة.

التحديات في حجم العالم

ونحن نواجه في عصرنا هذا التحديات بأكثر ممّا واجهتها العصور السابقة، لأنّ التحديات الفكرية الموجودة في الواقع المعاصر لم تكن موجودة بهذا العمق والامتداد والتنوع والكثرة، ولم تكن موجودة في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) ولا في زمن الأئمة (عليهم السلام) أو في زمن علمائنا السابقين، وذلك من خلال تطوّر وسائل الاتصال والتواصل بين كلّ دول العالم، ممّا جعل المسألة تنطلق في حجم العالم كلّهِ. ولذلك فإنّ على الداعية والمبلّغ والعالم المسلم أن يظلّ في حالة دراسة وتفكير وحوار وانفتاح على كلّ جديد في كلّ يوم، حتى يستطيع أن يكون الحجّة لله على الناس، بدلاً من أن يكون الحجّة على الإسلام لمصلحة الكافرين، لأنّ الإنسان الذي يملك ثقافة يستطيع من خلالها أن يدافع عمّا يمثّل وما ينتمي إليه.

لكلّ مقام مقال

أضف إلى ذلك أنّ الذين يجلسون تحت منابرنا، سواء كنّا مبلّغين على مستوى العلماء أو على مستوى الخطباء، وخصوصاً في المنابر المفتوحة التي

يحضرها الذين يختلفون معنا في الدين والمذهب، من المثقّفين، حيث إنّ البعض منهم يعتبر أنّ ما يسمعه هو صورة الإسلام، فإذا لم تكن الصورة التي ننقلها صورة مشرّقة فمعنى ذلك أنّنا سوف نقدّم للناس صورة مشوّهة عن الإسلام»^(٢٦).

(٢٦) المصدر السابق، ص: ٢٣٨ - ٢٤٠.

عاشوراء إسلامية في قيمها

وقد اعتبر المرجع الراحل السيد فضل الله (رض) أنَّ من انعكاسات البعد عن الواقع في المعالجة والطرح، تحجيم رسالة النهضة الحسينية ومجالس الغزاء الحسيني، بل وتحويلها أحياناً إلى أداة طائفية تثير الأجواء وتشحن النفوس، قال: «نحن بحاجة إلى خطباء كما إلى علماء يعيشون عصرهم، لأنهم إذا لم يعيشوا عصرهم فإنهم لا يفهمون ذهنية الجيل الذي يعيشون معه، ما يجعل نتيجة لذلك هوة عميقة بين الدين وبين الأجيال المقبلة، وفي المبدأ ليست هناك مشكلة بين الدين وبينهم، ولكن المشكلة في الذين يحركون قضايا الدين في وعي الإنسان. لذلك فإنني أخشى ممّا نقوم به من تصغير عاشوراء، وحبسها في القمقم، وهي التي انطلقت إسلامياً كما قال صاحبها عليه السلام: «خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»، إن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً به مخالفاً لسنة رسوله يعمل في عبادته بالإثم والعدوان فلم يغر عليه بقول ولا بفعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

ولكننا حولناها شيعية، لا من خلال قيم التشيع، بل من خلال التراكبات التاريخية التي تحركت فيها ذهنيّاتنا في مسألة الخلاف بين السنة والشيعية.. إن عاشوراء تمثل في ندائها الإنساني الإسلامي حركة الوحدة الإسلامية، لأن الحسين عليه السلام هو الشخصية التي يلتقي عليها المسلمون جميعاً، ليس هناك

مسلم سُنيّ أو شيعي يمكن أن يتحفّظ في احترام شخصيّة الإمام الحسين وأخيه الحسن عليهما السلام.

إنّ المسلمين جميعاً يَرَوُون أنّ «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»، «أحبّ الله من أحبّ حسيناً»، «حسين مني وأنا من حسين». لذلك كان من الممكن أن نحرك خطاب كربلاء - الذي لم يكن فيه أيّ شيء ممّا تعارف عليه في زنانات المذهبيّة المغلقة - ليكون صوتاً للوحدة الإسلامية، فيقوم السنّة والشيعة بإحيائها معاً، لا أن تكون مناسبة لإثارة الأحقاد الشيعية التاريخية ضدّ السنّة، أو ليكون ردّ الفعل أحقاداً تاريخية سنّية ضدّ الشيعة، وبدلاً من أن نواجه الكفر كلّ والاستكبار كلّ في المضمون الثقافي الذي نريد أن نحرك فيه عاشوراء، وإذا بنا نحاول أن نمزّق الوحدة الإسلامية باسم الإخلاص لأهل البيت عليهم السلام .. أو باسم الإخلاص لغير ذلك.

بدأنا نؤطّر عاشوراء، ونتفرّق شيعاً، فكل قبيلة فيها أمير للمؤمنين، «ألهاكم التّكاثُر» [التكاثر: ١]، أصبحت المسألة منّ الذي يجمع الناس أكثر، ومنّ الذي يجتذب الجماهير أكثر، ومنّ الذي يثير العصبية أكثر، لكن بألوان وبأوضاع مختلفة. لقد كانت عاشوراء ضدّ العصبية التي أراد الأمويّون أن يعمّقوها في وعي المسلمين الذين جمعهم الإسلام «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» [الحجرات: ١٣]، «لا فضل لعربيّ على عجميّ إلّا بالتقوى».

الاستفادة من دروس عاشوراء

أدرسوا كلّ الواقع، ولا تحسبوا أنّي أريد أن أدينه كلّ، لكنني أتكلّم عن الظّاهرة، والظّاهرة تصبح مشكلة وكارثة عندما تتحوّل إلى حالة من الإدمان لدى الكثيرين. ولذلك فلنفكّر، ما هو المردود الثقافي؟ هل استطاعت هذه

الجماهير من النساء ومن الرجال أن تعيش ثقافة عاشوراء في امتدادها الإسلامي وامتدادها الإنساني؟ لا أنكر أنّ عاشوراء في خطابها الحماسي وفي خطابها الولائي استطاعت أن تعبئ الناس بحب أهل البيت (عليه السلام)، ولكن ما هو مضمون هذا الحب، هل يكفي أن نقول إنّ الحق لهم؟ أو إنّ علينا أن نفهم ما هو الحق عندهم؟ ما هو فكرهم؟ ما هو خطّهم؟ ما هي القضايا التي أثاروها في مرحلتهم؟ ما هي القضايا التي تبقى لتعالج مشاكلهم؟ لا يكفي أن تحب أهل البيت (عليه السلام) أو تحب رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا لم تعرف ما معنى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حركة الإنسان، وما معنى أهل البيت (عليه السلام) في حركة الإنسان.

إنّ الحبّ الضبابي سرعان ما يزول عندما يزول الضباب، ولكن الحبّ المرتكز على قواعد فكرية وعقلية هو حبّ يبقى مهما انطلقت العواصف من أجل أن تجتث جذورها، لأنّه كالشجرة الطيبة «أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها» [إبراهيم: ٢٥]، لقد استطاعت عاشوراء من خلال كلّ هذا الحبّ للحسين (عليه السلام) في كلّ هذا الحماس ضدّ الأعداء أن تحرّك شيئاً في الجهاد، ولكننا لم نستطع أن نخطّط للمستقبل، فانهضت القضايا في دائرة هنا ودائرة هناك، ولكنّ النجاح في موقع يدفعك لأن تخطّط للنجاح في مواقع أخرى، لأنّ الظروف التي ربّما قد تساعدك في مرحلة قد لا تساعدك في مرحلة أخرى.

ولذلك نحن بحاجة لأن نخطّط للمستقبل بطريقة تختلف عمّا هو سائد الآن، لأنّ المسألة كما يقول المثل (ليس كلّ مرّة تسلم الجرّة)، لا سيّما وأنّنا نعيش في عالم استكباري يمثّل الأخطبوط الذي يمدّ أذرعته إلى كلّ مفاصل الحياة العامّة للإنسان وللمسلمين بالذات.

لذلك، فإنّ النجاح هو عملية تخطيط مستمرّ، ما إن تنتهي حلقة منه حتى

يفترض أن يتم التخطيط للمرحلة القادمة، وهكذا دواليك للاستفادة من عناصر النجاح للمستقبل، والبحث عن العناصر الجديدة التي تخطّط له، ليقفز من نجاح إلى آخر، وما إلى ذلك، وبعبارة أخرى أن لا نُهزم أمام القضايا، بل أن نفكر بالنصر على أنقاض الهزيمة، والاستفادة من دروس الهزيمة»^(٢٧).

عاشوراء في حركة الواقع

وفي كلمة له يقدّم من خلالها أمثلة واقعية تطبيقية لأحداث تعيشها الأمة الإسلامية وتسحب على بعض عناوين وشعارات الخطاب الحسيني، كالحريّة والدفاع عن القيم ومقاومة الظلم والظالمين، قال: «ونبقى لننتقل من عاشوراء الأفق الواسع، من عاشوراء التي تفتح إسلاماً وإنسانيةً، نبقى وتمدّنا عاشوراء بالكلمة الحرّة وأصالة الإنسان الذي يريد أن يقول نعم، كما تكون النعم، وهي الموقف الجدّي الرصين، لا الموقف اللاهي العابث.

نسمع مسلم بن عقيل يقول: «أقسمت أن لا أقتل إلا حُرّاً»، أو نسمع الحرّ بن يزيد الرياحي الذي قال: «إني أخير نفسي بين الجنة والنار»، يُخیر نفسه بين أن يكون مصيره النار عندما يبقى في الدنيا وهي بين يديه، وبين أن ينال الجنة ويترك كلّ الدنيا من أجل مبادئه.

وقد أكّد الحسين عليه السلام هذه الحرية وأعطاهها مفهوماً راقياً عندما قال له: «أنت الحرّ كما سمّتك أمّك»، حرّ في الدنيا والآخرة، والحرّ هو الذي يختار ما يريد ويملك إرادة الاختيار لما يريد، وكلمة الحسين هي برنامج الحرية، «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل...»، «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين بين السّلة والذّلة وهيهات منا الذّلة...».

(٢٧) من محاضرة ألقاها المرجع السيد محمد حسين فضل الله في قاعة الجنان في بيروت في السابع من محرم ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٣ آذار ٢٠٠٢م، ونقلا عن موقع بينات.

إنّ هذا البرنامج أو المنطق الحسيني نرفعه في وجهه (بوش) ^(٢٨)، الذي كان منطقته تماماً كما هو منطق ابن زياد، ولكن منطق هذا الأخير رُفعت عليه لافتة إسلامية، في حين أنّ بوش لا يضع لافتة إسلامية، وذلك عندما رفع شعار: (إمّا أن تكونوا معنا أو مع الإرهاب) يعني إمّا معنا وإمّا نقاتلكم، ولذلك ندعوكم إلى تحويل منطق الحسين عليه السلام في كربلاء إلى منطق عالمي يرفض الظلم والاستكبار كما رفض الإمام الحسين عليه السلام قول: إمّا معنا وإمّا مع الإرهاب.

نحن لسنا معكم ولا مع الإرهاب، نحن مع الإنسانية، نحن مع المقاومة، نحن مع الانتفاضة، نحن مع كلّ الذين يعملون من أجل حرية الإنسان، إنّنا نستطيع أن نستخدم منطق الحسين عليه السلام مع إسرائيل التي تريد من الفلسطينيين أن يخضعوا لتفرض عليهم شروطها، ليقولوا لإسرائيل كما قال الإمام الحسين عليه السلام: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل»، إنّنا نستطيع أن نحول شعارات عاشوراء إلى شعارات إنسانية عندما نتقن صناعتها وإخراجها، لأنّ الحسين عليه السلام كان للإنسان كلّ. لا يزال بعضنا ممّن يحبس عاشوراء في القمقم - والحمد لله أنّهم ليسوا كُثراً - يقولون ما لنا بفلسطين، هؤلاء سُنّة، والسُنّة ضدّ أهل البيت، وعاشوراء لأهل البيت، ألم تسمعوا بمثل هذا الكلام، كما كان يقال عندما كانت الحرب ضدّ إيران، هؤلاء شيعة وما شأننا بالشيعة، الشيعة ليسوا مسلمين، هنا السُنّة ليسوا مسلمين، وهناك الشيعة ليسوا مسلمين وضاع الإسلام بين هذه المقولة وتلك.

أيّها الأحبّة، لنخرج من عاشوراء في انطلاقة وعي يجمع الوعي الثقافي والسياسي والجهادي والاجتماعي، وخطأ أن نقول إنّنا يمكن أن نجزئ الأمور حيث لا فصل بين الجهاد والسياسة والثقافة وما إلى ذلك. فالجهاد حركة في

(٢٨) الرئيس الأميركي السابق جورج دبليو بوش الذي حكم الولايات المتحدة في الفترة من ٢٠٠٠ - ٢٠٠٨.

السياسة، والسياسة حركة في المبدأ، والمبدأ حركة في رضا الله، لا ازدواجية، إنَّ المسألة هي أنَّ الثقافة تعطي الوعي للسياسة، والسياسة تعطي الوعي للجهد، والجهد يعطي الوعي والحركة للواقع، تعالوا لتتكاملاً، تعالوا لتتعاون، تعالوا لتتوحد، المرحلة تفرض علينا أن نجمّد كلّ خلافتنا، لا أن نثير الخلافات والهوامش والجزئيات، تعالوا لنطوّر نقاط القوّة عندنا، ولا نستغرق في نقاط الضعف، وأن نرفض كلّ الكلمات التي لا معنى لها وأن نرفض كلّ اللّغو الذي لا علاقة للواقع به، كما قال ذلك الشاعر:

ونبقى نلفّ ونبقى ندور

ونحن نفتش عن قافيه

ألا قتل الضّعف فينا فقد

أضاع الرّعيّة والرّاعيّه»^(٢٩).

الجمود على الماضي

وحول سلبيّات الجمود على الماضي والاستغراق في التاريخ بعيداً عن أيّ توظيف عمليّ قال (قدس سره): «في عاشوراء، تختلط المأساة بالجهد، وتلتقي القضية بالذّات، ويتجمّد الرّمز أمام الشّخص، فإذا بها في امتداد الذّكرى أنهار من الدّموع، بدلاً من أن تكون عواصف في الثّورة، وإذا بالتصوّر التاريخيّ العاطفيّ يقدّمها إلينا كخصوصيّة في الذّات، لتكون القضية المنفتحة فيها من شؤون الذّات، بعيداً عن أن تكون حركة الذّات من نتاج القضية وملاحمها الأصيلة.. ثم كانت المسألة أنّها تعيش، في وعي الكثيرين من النّاس، معنى يتجمّد في الشّخص ليُعلّق عليه أبواب التّاريخ، لا رمزاً ينطلق من الماضي

(٢٩) من محاضرة ألقاها المرجع السيّد محمد حسين فضل الله في قاعة الجنان في بيروت في السابع من محرم ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٣ آذار ٢٠٠٢م، ونقلاً عن موقع بينات.

ليدفع كلّ حركة الحاضر في اتجاه خطّه الطّويل.. وهكذا لم تعد عاشوراء في الوعي الفكريّ والروحيّ في آفاق الدّهنيّة الإسلاميّة شيئاً للحركة، بل تحوّلت إلى شيءٍ للذكرى، لإثارة الإحساس، وتجييش الانفعال، واستنزاف الدّموع، وتأكيد الولاء في معنى المحبّة.

وقد استطاع هذا الجوّ أن يدفع بالذكرى إلى أن تبني بعض التقاليد في الواقع الشّعبيّ التاريخي، بحيث أصبحت مجرد عادةٍ شعبيّة فيما هو الانفعال بالمأساة، وفيما هو الزّهو بالبطولات، وفيما هو الاستغراق في عناصر الإثارة، حتّى تتغذّى العاطفة في كلّ مرحلةٍ بشيءٍ جديدٍ من الأخبار والتحليلات، ما جعل الحقيقة تضيع في غمار الأكاذيب، وأطلق للخيال الكثير من الآفاق في حركة المشاعر في معنى المأساة، وأدخل في المضمون الفكريّ بعض المفاهيم التي لا تلتقي بالمفهوم الإسلاميّ الأصيل، ولا تمتدّ إلى العنوان الكبير للقضيّة»^(٢٠).

بين الشّعار والموقف

وقال (قدس سره): «لا بدّ لنا من أن ندرس شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام في مسيرته إلى كربلاء والشّعارات التي أطلقها. فإذا كنّا نلتزم الاحتفال بموسم عاشوراء، فيجب أن يكون عنوان هذا الاحتفال من وحي شعارات الإمام الحسين عليه السلام، لأننا نواجه في مجتمعنا الإسلاميّ أكثر من سلطان جائر يتّصف بما وصف به الإمام عليه السلام السلطان الجائر. وعلينا كأمة إسلاميّة أن نعمل على تحويل هذا الموقف إلى موقف عمليّ نخطّط له وننفّذه، لأنّ المسألة القيادية التي يقوم بها الظالمون من القادة والرؤساء والملوك، تمثّل تهديماً للواقع الإسلاميّ. وهذا ما نلاحظه الآن في أكثر حكّام المسلمين الذين خضعوا للكفر والاستكبار العالمي، حتى يمنحهم البقاء في مراكزهم، ووظفهم حراساً

(٢٠) محمّد حسين فضل الله: وقفات فكريّة مع بعض مضامين عاشوراء، مقال منشور على موقع بينات.

للسّجن الذي أراد لهم أن يحبسوا شعوبهم فيه، وهذا ما نواجهه في الرؤساء و الملوك والحكّام والكثير من أتباعهم من السياسيين والإداريين، ممّن يُغريهم المال والسلطة، حيث نلاحظ كيف يقفون ضدّ الذين يأمرّون بالقسط، وكيف يقفون ضدّ المقاومة الإسلاميّة في لبنان وفلسطين، وكيف يخطّطون مع (إسرائيل) لارتكاب المذابح التي يمارسها الجيش الصهيونيّ ضدّ الأطفال والنساء والشيوخ وكلّ المدنيين، وكيف يخطّطون من أجل إسقاط كل حالات الممانعة، لأنّ المطلوب هو أن تباع القضية الفلسطينية لليهود وأميركا ولأوروبا أيضاً، بالطريقة التي يلعب فيها اللاعبون ويعبث فيها العابثون.

إنّ علينا أن ننطلق من خلال حديث رسول الله ﷺ: «من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحُرّم الله، ناكثاً لعهد، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بقول أو بفعل، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله»، لأنّ الأمّة تتحمّل مسؤوليّة السّكوت على الحاكم الظّالم، وعليها أن تعمل بكلّ أطيافها من أجل الثورة عليه وإسقاطه، لأنّ الحكّام الظّلمة ساهموا مساهمةً كبرى في إضعاف الشعوب الإسلاميّة، بحيث لم تعد تملك إلاّ الصراخ بالشّعارات الرافضة، حتى إنّهم لم يسمحوا في بعض هذه الدول لشعوبهم بالتّظاهر^(٢١).

حالة إسلامية سياسية

ويتساءل المرجع الراحل (قده): «هل إنّ عاشوراء في مدلولها الثّوريّ والروحيّ تمثّل حالة دينيّة بالمعنى التّقليديّ للحالة الدّينيّة؟ أو أنّها تمثّل حالة إسلاميّة سياسيّة؟ وبعد هذا التّساؤل: ما علاقة الإسلام بالسياسة؟ وهل

(٢١) من محاضرة ألقاها المرجع السيّد محمد حسين فضل الله في المجلس العاشورائي الذي أقامته جمعيّة التعليم الديني الإسلامي، في قاعة الزهراء، في شهر محرّم الحرام سنة ١٤٢٠ هجرية، نقلاً عن موقع مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر.

يمكنك أن تكون مسلماً دون أن تكون لك علاقة بالسياسة، أو أن يكون لك خط سياسي تستوحيه من الإسلام؟

في الجواب عن السؤال الأول، هناك مَنْ يتصور أنّ عاشوراء تمثل حالة دينية تقليدية، يجتمع إليها الناس، ويتذكرون جانب المأساة بعيداً عن جانب الحركة، ويفتشون عن عناصر الألم بدلاً من التفّيش عن عناصر الانطلاق. ومن هنا، يفكر هؤلاء الناس أنّ قصة الحسين (عليه السلام) في الذكرى، هي قصة الدّمة التي نستنزفها من عيوننا لتعبّر عن حزننا وألمنا. ولهذا يهتمّ الناس بالدموع، ويتحرّكون على أساس أن لا تكون الدّموع حالة عميقة في النفس، بل تكون حالة إيمانية يستنزفها الإنسان ليحصل على الثّواب.

وربما فكّر بعض الناس أنّه يكفيه ليحصل على غفران الله من كلّ ذنوبه، أن يبكي قليلاً في مأتم الإمام الحسين (عليه السلام)، أو أن يلطم صدره، أو أن يجرح رأسه، أو صدره.. فيكون قد وفّى الحسين حقّه. ويقول هؤلاء الناس: إنّ الذين يتحدثون عن قصة الحسين (عليه السلام)، من الموقع السياسي، سيئون إلى قداسة القصة، وإلى قداسة الحسين (عليه السلام)، لأنّ القضية هي قضية دينية، والقضايا الدّينية يجب أن لا ترتبط بالقضايا السّياسية.

وهناك جمهور كبير من الناس، يحاولون الاقتراب من الحسين (عليه السلام) من موقع مأساته لا من موقع ثورته. وملتقي في هذا النّمودج من الناس، بالكثيرين من الملوك الذين يتشيّعون لأهل البيت (عليهم السلام) رسمياً، كما كان حال شاه إيران (محمد رضا بهلوي)، الذي كان يقيم العزاء على الحسين (عليه السلام)، ويتحرّك في ما هو أخطر من خطّ يزيد، لأنّه كان يتحرّك ليعيد إيران إلى التّاريخ الكسرويّ الذي يعتبر الإسلام حالة عدوانية في تاريخ الشّعب الإيراني، على اعتبار أنّها حالة جاءت من الغزاة الذين غزوا إيران، فبدّلوا حضارتها وسياستها. وهناك

نماذج من السياسيين الذين يلتزمون الخط الاستعماري في سياستهم، وينفتحون على (إسرائيل) وعلى غير (إسرائيل) من أعداء أمتنا، ويركزون قواعد الحكم الظالم.. وهم يقيمون مجالس عاشوراء بطريقة احتفالية مأساوية، ويشترون على قارئ التعزية أن لا يبتعد عن المصيبة.

وهكذا نجد نماذج كثيرة من الناس، سواء كانوا من الشخصيات الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية الموجودة في المجتمع، تُكر على القارئ أن يتحدث عن الثورة بطريقة تواجه السياسة القائمة، أو تواجه الأوضاع السياسية الدولية أو الإقليمية التي تنعكس سلباً على واقع الناس، لأن عاشوراء مناسبة دينية - حسب رأيهم - فعلينا أن لا نسيء إليها بالسياسة، وينزعجون إذا وقف إنسان ليتحدث عن عاشوراء - الثورة، وعن عاشوراء - الخط، وعن عاشوراء - الهدف، وعن عاشوراء التي تتحدى كل جيل، لتقول له أمام كربلاء: أين أنت؟ أين موقعك؟ وهل إن موقعك مع الحسين (عليه السلام) في أفكاره وفي طروحاته، وفي شعاراته، أو أنك مع يزيد في أفكاره وفي أطماعه، وفي خطوطه العملية؟ ولذلك هناك نموذج يرى أن عاشوراء في مجملها، حركة سياسية.

إن من بين شعارات كربلاء التي رفعها الإمام الحسين (عليه السلام): «ألا وإن الدعي ابن الدعي، قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت، وجدود طهرت، أن نُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام». «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد».

عندما تواجه الحكم الذي يريد أن يفرض عليك أن تعطي بيدك إعطاء الذليل، وتقر إقرار العبيد، فإنك تطلق هذا كشعار سياسي، وإلا ما هي السياسة إذا كانت غير ذلك؟

إنَّ قيمة حركة الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء، أنَّها تتحرَّك في كلِّ مواقعها، في ما تستقبل من التَّاريخ، من أجل أن تحرَّك الموقف السياسي في مواجهة الحكم الجائر، والحاكم الجائر، والانحراف عن الخطِّ في كلِّ زمان ومكان.. وعندما نقول عن عاشوراء أنَّها حركة سياسية، فإنَّنا لا نريد أن نرفع عنها الصَّفة الدِّنيَّة، بل نريد أن نوَكِّد هذه الصَّفة، فمن قال لكم إنَّ الصَّفة الدِّنيَّة لأتية حركة تعني حيادها عن الجانب السياسي؟!

ديننا سياسة، وسياستنا دين

إنَّ الدِّين الذي يجعل الإنسان يتحمَّل المسؤولية أمام الله، هو الدِّين الذي يدفع بك لتعيش الحياة بكامل أبعادها، ولتتحمَّل مسؤولية الحياة على أساس التجربة. الدِّين حركة سياسية في كلِّ واقع تريد الأمة أن تنطلق من خلاله لترتفع إلى أعلى الدَّرجات. وكما قال بعض العلماء: «ديننا سياسة وسياستنا دين»، لا فصل عندنا بين الدِّين والسياسة. إنَّك عندما تمارس السِّياسة، فأنت تمارسها من موقع مسؤوليتك أمام الله في إقامة العدل وفي إسقاط الظُّلم، وعندما تنطلق في دينك، فإنَّك تنطلق فيه لتنفِّذ ما أَراده الله منك.

لماذا أرسل الله الرُّسل؟

لنقرأ هذه الآية من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والقسط هنا كناية عن العدل. فالله سبحانه وتعالى يقول: لقد أرسلنا كلَّ الأنبياء، من آدم عليه السلام إلى محمَّد ﷺ، أرسلناهم بالبيِّنات التي تؤكِّد نبوَّة كلِّ نبيٍّ، وأنزلنا معهم الكتاب: صحف إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ومحمَّد ﷺ، وأنزلنا معهم الميزان الذي يميِّز بين الحقِّ والباطل، أي يفصل بين الحقِّ والباطل، ويزن الأمور بموازين دقيقة، من أجل إقامة العدل في الحياة.. فما يلخص رسالات الأنبياء كلَّها

هو إقامة العدل، كلّ دين جاء لإقامة العدل في الكون ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، يعني بالعدل. وهنا نطرح سؤالاً آخر: عندما نريد أن نفرض العدل في المجتمع، هل يمكن أن نفرض العدل ونطبّقه بدون عملٍ سياسيٍّ؟ هل يمكن أن نحقق برنامج العدل في مواقع الحياة الفرديّة والاجتماعيّة كلّها، بدون أن نتحرّك سياسياً لنطالب بالعدل، ولنثور على الذي يأباه، ولنخطّط له في كلّ مجالات الحياة؟ هل يمكن أن نحصل على عدلٍ بدون ممارسة السياسة؟ قد يكون الحاكم عادلاً أو جائراً، فإذا أراد الله للنّاس أن يقوموا بالقسط، فهل يمكن أن يقوم النّاس بالقسط إذا كان الحاكم ظالماً؟ هل يمكن أن يقوم النّاس بالقسط إذا كان القانون ظالماً؟ وهل يمكن أن يقوم النّاس بالقسط إذا خضع النّاس للظّالمين من القوى الكبرى؟

إذاً، لنحقّق إرادة الله في الرّسالات. وحتّى يقوم النّاس بالقسط، لا بدّ من أن يكون لنا موقف سياسيٍّ، وحركة سياسيّة نتّقي فيها الله، ونتحرّك فيها على أساس حدود الله، لنحقّق ما أراه الله. وعند ذلك، نتحرّك السياسة في خطّ الدّين من خلال خطّ التّقوى، ويتحرّك الدّين في خطّ السياسة من خلال خطّ المسؤوليّة.

وعلى هذا الأساس، لا بدّ من أن نعي المسألة السياسيّة في المسألة الكربلائيّة الحسينيّة، ونعتبر الإمام الحسين عليه السلام - إضافةً إلى كونه سيّد شباب أهل الجنّة وريحانة رسول الله - إماماً وقائداً إسلامياً، انطلق من أجل تأكيد القيادة في الواقع الإسلامي على خطّ العدل وعلى خطّ الإسلام، حتّى كان عنوان حركته: أرى دمي رخيصاً أمام قضية العدل وقضيّة الإسلام.

كربلاء.. نهجٌ وشرعيّة

إنّ حركة الحسين هي نهجٌ لحركتنا، وشرعيّة للحركة الإسلاميّة.. في الحديث الشّريف: «من أصبح وأمسى ولم يهتمّ بأمر المسلمين فليس بمسلم». ما

معنى (ولم يهتم)؟ هناك اهتمام قلبي بأن تعيش الهم في قلبك، واهتمام عقلي بأن تفكر في عقلك كيف يمكن لك أن تنقذ المسلمين من أمورهم المعقدة والصعبة، واهتمام حركي عملي، وهو أن تفكر كيف يمكن لك أن تتحرك حتى تنقذ قضايا المسلمين وأمورهم؟

هذا في الجانب السلبي، وفي الجانب الإيجابي، نقرأ الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَتْ لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالْحَمَى وَالسَّهَرِ». هذه نظرية إسلامية تريد أن توصل الحالة الشعورية في الواقع الإسلامي إلى المدى الذي يخزن كل مسلم في داخله مفهوم الأمة - الجسد الواحد - وأن يعتبر واقع الأمة من الناحية الشعورية كواقع الجسد. فكما أن أعضاء الجسد لا يمكن أن تنام إذا ما كان أحد الأعضاء متألماً، فلا بد من أن نتألم كذلك إذا ما تألم أي شعب في أي منطقة إسلامية من العالم. عندما نؤكد أن عاشوراء حركة سياسية إسلامية، فإننا نؤكد معناها الديني في ما هو المعنى المنفتح على الحياة كلها؛ ونؤكد أن الحسين عليه السلام في الوقت الذي يمثل الإمامة بمعناها الديني الروحي العبادي، فهو ينفتح من موقع إمامته على كل المعاني السياسية في الواقع، والإمامة هي حركة في معنى الحكم وفي معنى القيادة.

الإمامة ليست حالة منغلقة بعيدة عن التحدي، ولولا ذلك، لَمَا واجه أهل البيت عليه السلام التحديات والنكبات العظام.

إن مسألة أن الدين يعتمد عن السياسة، جعلت السياسة في يد الذين يواجهون الإسلام وجهاً لوجه بفكر الإلحاد، وجعلت السياسة في يد الخائنين والفاستقين والظالمين. لقد آن الأوان لتكون السياسة في يد العادلين المتقين الواعين، حتى نستطيع أن نغير الواقع.

إنّ كربلاء ليست منطقةً في العراق، ولكنّها ساحة من ساحات الجهاد، والحسين ليس شخصاً في التاريخ، ولكنّه قائد ينطلق من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الشيطان هي السفلى»^(٢٢).

عمق إسلامي وتطلّعات إنسانية

وتساءل أيضاً في محاولة لاستقراء الوضع القائم ومدى انسجامه مع أهداف وشعارات الثورة الحسينية: «هل تكبرُ بها - أي القضية الحسينية - بالآفاق التي انطلقت فيها في مدى الزمن، وفي الرّوح التي انبعثت منها في مدى الإنسان، وفي الفكر الذي انطلق منها في مدى الإبداع؟ هل تكبرُ بها لتُخرجها من دائرة الزمن المحدود لنحرّكها في الأبعاد المترامية، أو أنّنا نصغّرها لنُدخلها في كلّ زنازين ذاتيّاتنا وطائفيّاتنا وكلّ أساليب الضّعف التي فرضت نفسها على العقل والقلب والحركة والحياة؟ هل تكبرُ بها، وإذا أردنا أن تكبرُ بها، فإنّ علينا أن لا نفصلها عن جذورها، لنجعلها مجرد حادثة مفصولة عن حركة الإسلام في الواقع، بحيث تغيب المسيرة الإسلامية في كلّ خطوطها ومفاهيمها وحركيّتها وانفتاحها على الإنسان، وبعبارة أخرى لا نربطها بالحركية التي صنعت ذلك المجتمع وأرادت أن تقتحمه لتبعد المأساة عنه وعن الذين صنعوا المأساة.

عاشوراء امتدادٌ لحركة الرسول

ولذلك فإنّني أخشى أن أقول إنّنا أدخلناها في ذاتيّاتنا فدخلنا في الذات ولم ندخل في القضية، حتى أنّنا عندما حرّكنا القضية الكبرى التي كانت عنواناً لها لم ندرسها بعمق، ولم نتزوّد منها للمستقبل، فالقضية الحسينية هي قضية ذات أبعاد ثقافيّة تحرّك السياسة في امتدادات الثقافة، وتحرّك الجهاد في وعي الإسلام، والقضية هذه كانت نتيجة طبيعية للتراكُمات التي عاشها المجتمع

(٢٢) محمد حسين فضل الله: مقال بعنوان عاشوراء في قلب الحركة السياسية، نقلاً عن موقع بينات.

الإسلامي في كل انحرافاته وفي كل ما دخل فيه من هنا وهناك، لذلك كانت كربلاء فرعاً من أصل، وجزءاً من كل، لن نستطيع أن نذكرها إن لم نذكر بديراً وأحداً والأحزاب وحُنيئاً وكل ما صنعه المجتمع المشرك في مواجهة رسول الله ﷺ والإسلام في مكة، وما فرض عليه من أوضاع لم يستطع الرسول ﷺ من خلالها أن يمدّ حركته وإسلامه..

فلنكبر بعاشوراء

إنّ ما نريده هو أن نكبر بعاشوراء، فلا نرى فيها مجرد قيادة تنزف الدماء منها، دماء الكارثة ودماء المصيبة، ودماء الجسد، ولكننا نريدها أن تكون قضية، فتمثّل الشخص وجه القضية وروح القضية، لا أن ننفذ إلى الشخص وننسى القضية، وهذا ما نفعله الآن والزمن في مسيرته قطع الأجيال ووصل إلينا، فأصبحت المسألة كيف نبكي الحسين ﷺ بالتاريخ أكثر ممّا نبكي الإسلام في الواقع، وأصبحت المسألة هي كيف نبكي هؤلاء الذين استشهدوا مع الحسين ﷺ قبل أن نبكي المجتمع الذي يتخبط في واقعنا»^(٣٣).

(٣٣) من محاضرة ألقاها المرجع السيد محمد حسين فضل الله في قاعة الجنان في بيروت في السابع من محرم ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٣ آذار ٢٠٠٢م بعنوان القضية الحسينية.. عمق إسلامي وتطلعات إنسانية، ومنقولة عن موقع بينات.



الاقتصار على البعد العاطفي

تزاوَجَ العقل والعاطفة، والإيمان والحسّ في أية قضية سيؤدّي إلى القوة في وجودها واستمرارها، فكما أننا نحتاج إلى البراهين العلمية وإلى الجوّ العلميّ من أجل تنمية الأفكار في عقولنا، نحتاج كذلك إلى الأساليب العاطفيّة من أجل تعميق الفكرة في أحاسيسنا ومشاعرنا، فالعاطفة هي التي تمنح الفكر حرارته وحيويّته، وتخرجه من الجمود إلى النشاط، وليتحوّل من حالة فكريّة إلى حالة إيمانية.

لذا لا بدّ أن تبقى قضية الإمام الحسين عليه السلام في إطار التعبئة الجماهيرية العاطفية إلى جانب التعبئة الفكرية العقلية. فمَن غالى في الجانب العاطفيّ على حساب الجانب الفكري، فقد أخطأ الأسلوب، وأفرغ القضية الحسينيّة من محتواها والهدف من انطلاقتها.. ومَن عكس الأمر ولم يعطِ للعاطفة أيّ موقع فيما يعرضه، فقد جرّد القضية الحسينيّة من ركن أساسي من أركانها، بل خسر مقوّمات النجاح في عرض القضية الحسينيّة في مبادئها وأهدافها وتأثيراتها.

ولكنّنا نشهد أنّ البعض من أصحاب المجالس ومن الخطباء الحسينيّين يصرّون على تجريد مجالس العزاء الحسينيّ من أيّ تحليل أو بحث حول أحداث النهضة الحسينيّة، بل ويؤكّدون على ضرورة هذا التجريد، الذي ليس هو في واقعه أمراً جديداً على الساحة الشيعيّة، بل هو امتداد لنهج استمرّ لقرون

طويلة عاش فيها المسلمون سنين عجافاً في فهم الدين والارتباط الحقيقي والفاعل بقادته وبالقُرآن. وقد تحدّث الباحث المتخصّص في الاجتماع الديني الدكتور محسن حسام ظاهري عن ذلك في مقابلة أُجريت معه حيث أشار إلى: «تفريغ محتوى أدبيات عاشوراء وسلب الاجتماع الشيعي مضمون وروح الحماسة والنضال؛ وذلك من خلال دس الروايات والتفسير السطحية غير الحماسية عن حادثة عاشوراء؛ فممنذ زمن المغول أخذت واقعة كربلاء تبتعد - شيئاً فشيئاً - عن طابعها الثوري نظراً لوجود بعض العوامل المساعدة على ذلك، منها تدخل الحكومات وانتشار المتصوّفة فاستبدل واقع هذه الحادثة بانطباعات معنوية وعرفانية، ويمكن الاستدلال على حضور هذا الاتجاه الجديد بقوة من خلال انتشار كتابي: (روضة الشهداء)، للواعظ الكاشفي، و(تركيب بند/الأرجوزة) لمحتشم الكاشاني، وما حظي به هذان الكتابان من استقبال منقطع النظير. ومن سخریات الأقدار أن يكون كلا المؤلفين من رؤساء المتصوّفة البارزين في عصرهم، ومن الطبيعي أن يقدّما وجهات نظرهما عن عاشوراء بما يتناسب ومذهبهما؛ أي انطلاقاً من المقولة التي تقول: البلاء للولاء.

يقول رسول جعفریان في تحليل رؤية كتاب (روضة الشهداء) الصوفية لواقعة عاشوراء: من لوازم الفكر الصوفي أن يقدّم المحلّل الصوفي فكرته وانطباعه عن الحوادث بتجريدتها عن جدية السياسة، ويطبّعها بما هو فوق الطبيعة، فعنده أن لكل حادث تأثيرات معنوية خاصّة به.. يتشدّد المتصوّف حيال الدنيا لينال مقابل ذلك درجات رفيعة من المعنى والمثالية؛ فقد محّص الله الأنبياء والأولياء بأشدّ أنواع البلاء كي ما تزداد عزّتهم ومنزلتهم. والتاريخ الديني مليء بحوادث الأنبياء والأولياء ومعاناتهم.. ولهذا لا نرى عبارة واحدة في كتاب (روضة الشهداء)، تذكر حقيقة ثورة كربلاء أو ما انطوت عليه من أهداف سياسية. أمّا عن شهداء كربلاء فالحديث مقتصر على بيان منزلتهم

الدنيوية واستعاضتها بما هو أعلى بانتقالهم إلى الدار الآخرة. إذًا، فهل من مبرّر لبقائهم في الدنيا؟! وبالنسبة للموالين للإمام فإنّ أفضل ما بين أيديهم هو البكاء طريقاً للخلاص والنجاة...

وفي زمن «القاجاريين» أيضاً، كانت هناك نماذج مشابهة لهذا النمط من التوظيف والاستغلال بصور متعدّدة... كان ملوك القاجار يحرسون - لآخر لحظة - على إجراء حيّلتهم كي لا تُكشف حقيقتهم لدى عامّة الناس في تحريف بعض معتقدات الشيعة والتلاعب بها. وتلك حيلة أغفلها خلفهم القوقازي رضا شاه البهلوي بقصد أو بغير قصد، وكانت النتيجة الكشف عن سرّ دام قرناً من الزمن. وبعد أقلّ من عقدين جاء دور هذا القائد العسكري؛ فاستعان بتظاهره بالشعائر الدينية - لاسيّما مراسم العزاء الحسينيّ والمواكب - في استغلال العوام وبعض رجال الدين؛ ليصل عن هذا الطريق إلى سدّة الحكم، وبمجرّد تسلّمه السلطة أصدر أمره بحظر إقامة مجالس العزاء نفسها وسائر الشعائر الدينيّة الأخرى، وبعمله هذا كان قد خلق أرضية مناسبة لسقوطه دون أن يشعر. وهكذا انفصلت الشعائر الشيعيّة المذكورة - بعد قرن من الزمن - عن السلطة وعادت إلى الشعب... وبفكر المتنوّرين والعلماء الواعين - وفي طليعتهم الإمام الخميني - استعادت هيئات العزاء مكانتها الحقيقية، وعادت شيئاً فشيئاً إلى يد الشباب الثوري. وبهذا استعادت التجمّعات حياتها ونضالها في مقارعة الظلم وإقامة العدل، مع العمل على الإصلاح - إلى حدّ كبير - في التحريفات الطارئة على مضامينها، وعلاوة على مقارعتها للظلم الداخلي - الاستبداد البهلوي - باتت أيضاً تهتمّ بمواجهة الظلم الخارجي المتمثّل بالاستكبار العالمي والصهيونيّة»^(٢٤).

(٢٤) محسن حسام ظاهري: مجالس العزاء.. الأنوار والوظائف الفردية والاجتماعية، ترجمة: محمد عبد الرزاق، مجلة نصوص معاصرة، العدد التاسع.

العاطفة في عاشوراء

لا رفض لتحريك العاطفة في أجواء إحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام وواقعة الطف، بل إنَّ تحريك المأساة في إطار تحريك ذكرى الطف أمر مطلوب وهام، وهذا ما أكده المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله (قدس سره) حيث قال: «نحن نوّكد أن قضية الحسين عليه السلام لا بدّ أن تكون مغسولة بالعاطفة، فلا بدّ أن تبقى المأساة أساساً في الثورة الحسينية عندما نقدمها للناس، لأنَّ الثورة الحسينية إذا خلت من العاطفة أصبحت مجرد قضية من قضايا الصراع في التاريخ، وماتت كما تموت كثير من قضايا الصراع في التاريخ، ولذلك فقد خطّط أهل البيت عليهم السلام لتبقى قضية أهل البيت مربوطة بالعاطفة، فكانوا يُشوّون المجالس ويجلسون إلى الشعراء الذين ينشدون في مرثي الحسين عليه السلام وبهيوون الأجواء البكائية وما إلى ذلك.. لذلك نحن نوّكد على أن العاطفة أساسية في مسألة الإمام الحسين عليه السلام، ولا يجوز لنا أن نبتعد عنها»^(٢٥).

بين البكاء والتباكي

وقد سُئل (قدس سره) حول شرعية التباكي من قبل الخطيب على المنبر، ودعوة الحضور إلى ذلك، فقال: «التباكي ليس تمثيلاً، بل إنه يمثل الإنسان الذي يختنق الحزن في صدره، ولكنّه لا يملك أن يعبر عنه بالدموع، التباكي إنّما ينطلق من الحالة البكائية النفسية التي لا تتفجّر دمعاً، ولذلك فإنَّ المطلوب هو إثارة التعبير عن الحزن، فإذا لم يمكن أن يعبر بدموعه، فيعبر عن ذلك بأن يكون في صورة الدامع»^(٢٦).

(٢٥) محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، ص ٢٤١.

(٢٦) من مقابلة أجرتها جريدة السفير اللبنانية مع المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله في ٢٧/٥/١٩٩٩، نقلًا عن موقع بينات.

عقلنة العاطفة

ولكنّه في مواطن أخرى أكّد على ضرورة المزج بين العقل والعاطفة، وخطأ التفكيك بينهما، قال (قدّس سرّه): «إنّ كربلاء ثروة عظيمة، وهي تمثّل التاريخ الذي نستطيع أن نقدّمه إلى العالم كي نثبت أنّ هذه البطولة الروحية الإنسانية قد انتصرت في مواجهة الوحشية التي تمثّلت في قتل الإمام الحسين عليه السلام؛ ولذا نقول إنّّه لا بدّ من أن نجمع بين العاطفة والقضية، لأنّ القضية إذا لم تمتزج بالعاطفة فقد تموت في التاريخ كما ماتت الكثير من القضايا التاريخية في هذا المجال. لكن علينا أن نعقلن العاطفة ونرشدها ونصلحها حتّى تتكامل مع القضية، ولتكون العاطفة في خدمة الرّسالة. كما أنّ قيمة إثارة العاطفة بطريقة إنسانية وعقلانية، تجعلنا نتفاعل مع كلّ المآسي التي تمتدّ في العالم. فالكثير من النّاس الذين يعيشون مأساة كربلاء، يتفاعلون ضدّ المجازر الوحشية التي يقوم بها الصّهاينة بدعم من أميركا والاتّحاد الأوروبي وبعض الدّول العربيّة، كما لاحظنا في مجزرة غزّة. فعندما ننطلق لنرفض المأساة في كربلاء، فإنّ هذا الموقف يدفعنا لنرفض جميع من يصنعون المأساة في العالم، سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين، لأنّ قضية المأساة هي قضية إنسانية لا يملك الإنسان إلا أن يتفاعل معها.

وليس نقدنا لهذه الطّرق وبعض أشكال الاحتفاء بعاشوراء يعني أنّنا نتنكّر للعاطفة، ولكن ينبغي أن تتمثّل العاطفة بالبكاء الهادئ، وحتى اللّطم الهادئ، لا اللّطم الفلكلوريّ والاستعراضيّ الذي لا يوحى بالحزن.

نحن مع أن نعقلن العاطفة ونرشدها، وأن نعمل من أجل تجديد القضية، وتجديد إحيائها، وإبعاد كلّ الجهلة الذين يصعدون المنابر، لأنّهم يتحرّكون على أساس الخرافة التي يغذّون النّاس بها من أجل اجتذاب الدّفعة.

أيّها الأحبة، هذه عاشوراء الإسلام، عاشوراء الرّسالة وعاشوراء القضية، عاشوراء الجهاد، التي تنطلق من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشّيطان هي السّفلى»^(٢٧).

بين الوعي والتقليد

ويؤكد الفكرة ذاتها في موقع آخر منتقداً الخطاب الشعريّ والأدبيّ المستغرق في الجانب العاطفيّ حتّى في مواقع إظهار القوّة والعزّة: «وتبقى لنا في كلّ سنة عاشوراء، وننطلق إلى كلّ الرّحلة التي قطعناها في مدى الزمن لنراقب، ثمّ لنعتبر، ثمّ لنتحرك. انطلقت عاشوراء في معنى الذّكري، في وعي أكثر من جيل من أجيالنا التي سبقتنا، دموعاً تستذكر المأساة، وتعي مأساة كلّ أوضاعها من خلال ما تفتح به على مأساة كربلاء، وربّما كان الكثيرون من الناس ينزفون دموعهم الكربلائيّة لتلتقي بدموعهم الذاتية أو المجتمعيّة، في ساحات لا يملك فيها الكثيرون من هؤلاء الناس أيّة فرصة لتغيير الواقع، وكانت كلّ قضيتهم كيف يمكن أن يتفادوا شرور هذا الواقع وحصاره، ولذلك كانت الدّموع تعبيراً عن الإحساس بالمأساة التي تضيف إلى كلّ الأجيال أكثر من مأساة جديدة يستحضرون فيها الحكم المنحرف في الواقع الإسلاميّ الذي كان سرّاً حركة عاشوراء، وكانوا يتطلّعون إليه في الواقع الذي يعيشون فيه.

وهكذا تحرّكت عاشوراء.. وكانت وعياً.. إلى أن تحوّلت تقليداً، وأصبحت تلك الدموع الاحتجاجيّة أشبه بدموع تقليديّة باردة، نعصرها لأننا لا نعيش حرارتها، ونحن جميعاً نعرف أنّ أيّة قضية عندما تتحوّل إلى تقليد من تقاليد الناس فإنّها تجمد.

(٢٧) من محاضرة ألقاها المرجع السيّد محمد حسين فضل الله في المجلس العاشرائيّ الذي أقامته جمعيّة التعليم الدينيّ الإسلاميّ، في شهر محرّم الحرام سنة ١٤٣٠ هجرية، نقلاً عن موقع بينات.

ولذلك أصبح الشعراء عندما ينظمون الشعر في عاشوراء يتحرّكون في استغراق باكِ في المأساة، ويحاولون أن يتخيّلوا من خلال ظروفهم البدويّة، ليحرّكوا زينب عليها السلام في أحاديث عاشوراء، على أساس تقاليد نساء البدو، فتتصوّر، وأنت تقرأ شعر القريض أو الشعر الشعبي، أنك تلتقي ببديويّة تعرف كيف تبكي، وكيف تسقط أمام المأساة، وتواجه عشيرتها لتستثيرهم كأنّ المسألة قضية ذات تستنفر العشيرة، لا قضية بطلة تستنفر الأمّة.

ولذلك، فقد أصبحت زينب عليها السلام في الذهنيّة الشعبيّة، وربّما في المستوى الأعلى من الذهنيّة الشعبيّة، رمزاً للمأساة أكثر ممّا هي رمزٌ للقضيّة، لأنّ الذين كتبوا المأساة من خيالاتهم، أو الذين صوّروا المأساة في أشعارهم ونثرهم، أرادوا لأبطال كربلاء أن يتحوّلوا إلى شيء يُبكي، لا إلى قوّة تتحدّى، وحتىّ عندما يتحدثون عن قوّة، وعن كلمات القوّة، فإنّهم يحدثونك عنها بطريقة بكائيّة. هل لك أن تبكي وأنت تسمع الحسين عليه السلام يقول: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»؟ هل يمكن لك أن تبكي، أو تستحضر أيّ دمة من الدّموع وأنت تسمع الحسين عليه السلام يقول: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين بين السّلة والذّلة وهيّات منا الذّلة»؟ ومع ذلك يريدون منك أن تبكي معها، حتّى تأكل المأساة الموسيقيّة في اللّحن العزائيّ كلّ معنىّ للقوّة في الكلمات. وأصبحت لنا الشخصيّة البكائيّة التي تبكي حتّى وهي تفرح، وقد قال قائلهم:

يفرح هذا الورى بعيدهم ونحن أعيادنا ماتمنا

وهكذا أدمنت عاشوراء البكاء، وأدمنت المأساة، حتّى أصبح الكثيرون من النّاس ممّن يقيمون في عاشوراء عزاءً أو موكباً، يُكثرون عليك أن تُدخل في عاشوراء شيئاً إسلامياً يتحدّى، أو يتدخّل فيها موقف سياسيّ يهزّ حاضرك

ويتحدّى وجودك، لتستلهم عاشوراء التحدي، وعاشوراء الانفتاح والثورة. حتّى وهم يقرأون ما قيل عن لسان الحسين عليه السلام:

إِنْ كَانَ دِينَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَسْتَقِمْ إِلَّا بِقَتْلِي يَا سَيُوفَ خَذِنِي

فهم لا يحاولون أن ينفذوا إلى عمق الكلمة، ليعرفوا ما هي مسألة استقامة دين النبي ﷺ بهذه الدماء، وماذا كانت تطلب هذه الدماء، فهل كانت تطلب تغييراً جزئياً بأن يترك يزيد شرب الخمر، ولعب القمار وقتل النفس المحترمة، ليعترف بشرعيّته، ويبقى الحاكم، لأنّ المسألة هي قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليست هي قضية حكم يُطلب ويُغيّر ويسقط، ليُستبدل به حكم آخر يملك الشرعيّة في العمق والامتداد والحركة؟^(٢٨).

لماذا الإصرار؟

يمكن أن نعزو أسباب إصرار البعض على منع أيّ طرح تحليليّ للنهضة الحسينيّة من خلال مجالس العزاء الحسينيّ إلى أمور:

العامل الأول: اعتبارها حادثة فريدة في ظروفها وأهدافها لا يصحّ تطبيق نموذجها على أيّ نموذج آخر. وقد تعرّض الإمام الخمينيّ إلى هذه المغالطة في خطاب له حيث قال: «إنّ كلمة: كلّ يوم عاشوراء وكلّ أرض كربلاء، لشعارٌ عظيم أخطأوا فهمه؛ فتصوّروا معناه في استمرارية البكاء، وهو - بالتأكيد - خلاف مضمون نصّه، فماذا صنعت كربلاء؟ وما دور أرضها في يوم عاشوراء لكي يتحمّ على سائر البقاع أن تقتدي بها؟ إنّ معنى كربلاء يكمن في تلك الأرض التي سار إليها مجموعة من الأفراد ليقفوا بوجه يزيد ودولته الطاغية؛ إنّهم جابهوا إمبراطور زمانهم وضجّوا واستشهدوا دون أن يخضعوا للظلم،

(٢٨) محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، ص ١٠٩-١١١.

وبذلك انتصروا على يزيد؛ فعلى الأماكن الأخرى أن تكون بهذا المستوى، وعلى الأيام أيضاً أن يكنّ بمستوى مجد ذلك اليوم. وعلى شعبنا أن يتصور كل يوم كيوم عاشوراء؛ فلا بدّ لنا من الوقوف بوجه الظلم، وهذه كربلاء هنا ولا بدّ من إحياء دورها؛ فهي لا تُحدُّ بجغرافيا أو تاريخ، وليس دورها مقتصر على عناصر محدّدة لا يتجاوز عددهم السبعين شخصاً، بل ذلك كلّ حاضر في كلّ مكان وزمان»^(٢٩).

العامل الثاني: اعتبار تكاليف الأئمة عليهم السلام مختلفة عن تكاليفنا، فهم مأمورون بما يأتون به، ينفذون ما وصل إليهم كابر عن كابر، وبالتالي لا يصحّ وضع حركتهم التاريخية في إطارٍ بحثي تحليلي. ويستند في ذلك إلى عدد من النصوص المروية في الكافي وغيره، من قبيل: عن حريز قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك ما أقلّ بقائككم أهل البيت وأقرب آجالكم بعضها من بعض مع حاجة الناس إليكم؟! فقال: «إنّ لكلّ واحدٍ منّا صحيفة فيها ما يحتاج إليه أن يعمل به في مدّته، فإذا انقضى ما فيها ممّا أمر به عرف أنّ أجله قد حضر، فأتاه النبي ﷺ بنعى إليه نفسه وأخبره بما له عند الله. وإنّ الحسين عليه السلام قرأ صحيفته التي أعطيتها، وفسرّ له ما يأتي بنعي وبقي فيها أشياء لم تُقَضَّ، فخرج للقتال..» إلخ^(٤٠). إلّا أنّ هذه النصوص بدلالاتها الظاهرية لا تصمد أمام نقد السند والمتن، فلا يصحّ التمسك بها في المقام.

وقد تحدّث المرجع الراحل (رض) حول ضرورة فهم البُعد الشرعي والتكليفي للإمام الحسين عليه السلام بما يشمل هذه النقطة والنقطة السابقة قائلاً: «هناك سؤال يتردّد: هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بما يصيبه في نهاية المطاف

(٢٩) روح الله الموسوي الخميني: قيام عاشوراء در كلام وبيام امام خميني (ثورة عاشوراء عند الإمام الخميني) ٥٨، والنص مجتزأ من كلمة ألقاها سنة ١٩٨٠م.

(٤٠) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٨٢-٢٨٤.

عندما بدأ مسيرته إلى كربلاء؟ وإذا كان يعلم ذلك، فكيف جاز له أن ينطلق في مسيرته التي تؤدي به إلى القتل، وذلك من خلال النهي القرآني عن إلقاء النفس في التهلكة؟

والجواب عنه، أن السيرة الحسينية تحتوي عدّة إشارات تفيد أنه كان عالماً بمصيره، من خلال الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، وفيما أثاره في حوار مع الذين طلبوا منه العودة عن قراره بالسفر إلى العراق، وفيما تحدّث به إلى القوم الذين رافقوه من مكّة، حيث أعلن لهم النّهاية المحتومة التي سينتهي إليها في سفره ذاك، وربّما كانت طبيعة الأمور في موازين القوى تفرض ذلك، ولا سيّما في منتصف الطريق، عندما عرف بمقتل سفيره وابن عمّه مسلم بن عقيل في الكوفة بعد خذلان الناس له.. وفي ضوء ذلك، كيف نفسّر المسألة من النّاحية الفقهيّة؟

ربّما يثير البعض المسألة في دائرة خصوصيّات الإمام الحسين عليه السلام في تكاليفه الشرعيّة التي قد تفرضها إمامته، ممّا يجوز له ولا يجوز لغيره، لأنّ دوره يختلف عن دور الآخرين، ولذلك فإنّه يطرح المسألة على أساس أنّه أعرف بتكاليفه فيما حدّد الله له من تكاليف، فليس لنا أن نخوض في الموضوع في دائرة التّصوّر الشرعيّ في تكاليفنا.

ولكنّنا نتساءل: ما هي المشكلة في القضية؟ ولماذا لا يجوز للرّساليّ الثّائر أن يتحرّك بالثّورة ضدّ الفئات التي تتحدّى الإسلام في حركته وفي قوّته وفي امتداده، في المواقع التي يواجه فيها الخطر المحقّق أو المحتمل؟ وهل يدخل ذلك تحت عنوان إلقاء النفس في التهلكة؟

إنّ الجواب عن ذلك، هو أنّ هناك فرقاً بين الحالات الفرديّة التي تؤدي إلى الموت، والحالات الجهاديّة التي تتحرّك في مواقع الخطر، فقد رخص

الله للمجاهدين أن يتحرّكوا في السّاحات التي تؤدّي بهم إلى القتل فرادى أو جماعات، لأنّ الإسلام يفرض عليهم ذلك، ما يجعل دائرة الجهاد خارجة عن دائرة حركة إلقاء النّفس في التّهلكة..

وفي ضوء ذلك، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام حدّد لنفسه ولأصحابه من أهل بيته وغيرهم المهمّة الجهاديّة الموكولة إليه، ورأى فيها إلزاماً شرعياً فيما هي الأهميّة الكبرى للمصلحة الإسلاميّة العليا، تماماً كما هي حالة المجاهدين في زمن النّبّي صلى الله عليه وآله، فيما كانوا يواجهونه من احتمالات الخطر الكبير، ويأملون، من خلال الشّهادة التي يحصلون عليها، الفوز بالجنّة فيما وعد الله به عباده المجاهدين الذين اشتري أموالهم وأنفسهم: ﴿بِأَنَّهُمْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

ثمّ لو كانت المسألة كما يقولون، فلماذا لا يكون فعل الإمام دليلاً شرعياً على استثناء مثل هذه الحالات من إطلاق النّهي عن إلقاء النّفس في التّهلكة، وإذا كان الفعل كما يقولون، لا إطلاق فيه، فيقتصر فيه على مورده، وهو الإمام الحسين عليه السلام.. فإنّ هناك نقطة لا بدّ من التوقّف عندها، وهي أنّ أهل بيته وأصحابه انطلقوا بالموقف من خلال العناوين العامّة للجهاد، بإذنه وبرعايته، ما يوحي بأنّ المسألة لا تتّصل بالمورد الخاصّ، بل تمتدّ إلى الخطّ العام، ما يؤدّي بنا إلى الاستنتاج الفقهي بأنّ من الممكن لأيّة حالة مماثلة فيما هي الظروف والمواقع، أن تأخذ الشّرعيّة لحركتها من عاشوراء، على أساس أنّها خارجة عن دائرة النّهي الشّرعي في إلقاء النّفس في التّهلكة.

ونبقى في الإطار الفقهي من قضية عاشوراء، لنطرح سؤالاً آخر يلتقي مع السؤال الأوّل في بعض جوانبه، ولكنّه يختلف عنه في العنوان والامتداد: هل نستطيع أن نفهم شرعيّة العمل المسلّح في حركة التّغيير للواقع الإسلاميّ

المنحرف من خلال هذه الحركة الحسينية؟

وهل يمكن أن تنطلق عناوين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح في أمة الإسلام، لتدفع بالقيادة الإسلامية وبالمسلمين معها، إلى التحرك في خطّ المواجهة، ولا سيّما إذا كان الواقع الإسلامي واقع القيادة المنحرفة تعمل على إضعاف الخطّ الإسلامي الفكري أو العملي؟

وهل كانت حركة الثورة في عاشوراء حركة فاعلة بمستوى المبادرة الحسينية، أو كانت حركة منفعة بالضغط الأموي الذي عمل على محاصرة الإمام الحسين عليه السلام ومن معه، ما أدى إلى أن يقفوا في مواجهة القوة المحاصرة دفاعاً عن النفس؟

اختلال الموازين وشرعية التحرك

هذه علامات استفهام قد يطرحها البعض، ليؤكد أنّ الحسين عليه السلام تحرك من خلال ما كان يتصوره من الظروف الطبيعية للواقع، بحيث كان الرفض للبيعة حركة تتجه لصنع القوة من خلال الاتصالات التي كان يجريها مع الشخصيات الفاعلة في الكوفة والبصرة وغيرهما، ومن خلال الاستجابة للرغبة الكبيرة التي عبر عنها الكثيرون من الشخصيات القيادية في الكوفة، الأمر الذي أقتعه بالقدرة على أن يواجه المسألة من موقع قوي يعيد الشرعية إلى موقعها القوي، ليواجه السلطة غير الشرعية على أساس العناوين الجديدة التي تتمخض عنها الحركة، ليطلب من كلّ القوى، بما فيها الحاكم الجائر، الابتعاد عن موقع السلطة، فإذا رفض ذلك، كانت محاربته محاربة للرافضين للطاعة في الدخول في البيعة العامة المرتكزة على شرعية الإسلام.

إنّ الإمام الحسين عليه السلام، كان مقتنعاً بقدرته على أن يجعل من الكوفة مركز السلطة الشرعية، تماماً كما كان عليه أمر أبيه الإمام علي عليه السلام، من دون أن

يقوده ذلك إلى قتالٍ، من خلال نجاح سفيره مسلم بن عقيل في سيطرته على الكوفة، وهذه هي وجهة نظر هؤلاء؛ وقد يؤكدون نظرتهم بأنَّ الحسين عليه السلام لو كان يعرف أنَّ الأمر يؤدي إلى قتالٍ، لمَّا بدأ تحرَّكه بهذا الشكل التَّأثير القويِّ، لأنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، لا يفرضان على المسلم، قائداً كان أو جندياً، مثل هذا الأسلوب في الحركة، بل قد يَشْكُل الأمر إذا أدَّى ذلك إلى العنف الجارح أو القاتل.

ولكننا في دراستنا للسيرة الحسينية، من خلال الكلمات الصادرة عن الإمام الحسين عليه السلام في أحاديثه مع الشَّخصيات التي حاولت أن تصرفه عن مسيره، وتحذَّره من الخطر الذي يواجهه من خذلان أهل الكوفة، ومن ضغط بني أمية، نجد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان واعياً للنتائج القاسية التي قد تنتهي إليها حركته، ولو على مستوى الاحتمال الكبير، بل قد يستشعر الباحث من بعض الكلمات، أنَّ المسألة كانت مورد قناعة يقينية لديه، ولا سيَّما إذا عرفنا أنَّ طبيعة مثل هذا الموقف الذي يواجه فيه رأس السَّطلة ليعده عن موقعه، كان يفرض تلك النَّتائج، كما كان الأمر مع أبيه الذي كان يدافع عن موقعه الشرعيِّ ضدَّ الذين تمرَّدوا عليه، ومع أخيه الإمام الحسن عليه السلام الذي كان ينطلق من الموقع نفسه، بحيث كان من الصَّعب، بدرجةٍ عاليةٍ جدًّا، أن تنتهي المسألة إلاَّ بقتالٍ عنيف، مع ملاحظة مهمَّة، وهي أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يرفض الصَّلاح على أيِّ مستوى، لأنَّ المرحلة التي كان يتحرَّك فيها، لا تستجيب لأية مصلحةٍ إسلاميةٍ في الصَّلاح، خلافاً للمرحلة السَّابقة التي عاشها مع أخيه الإمام الحسن عليه السلام في حربه مع معاوية، وهذا ما يجعل من مسألة النَّتائج الخطرة أمراً طبيعياً جدًّا.

ثم نلاحظ، أنَّ الإمام الحسين عرف بمقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهل الكوفة له وسيطرة بني أمية، من خلال ابن زياد، على الكوفة، في الوقت الذي لم

يكن الأمر قد ضاق به إلى مستوى الحصار الذي يمنعه من العودة إلى المدينة أو الذهاب إلى مكان آخر، فلو أنّ المسألة مسألة حركة تبرّر نفسها بما تملكه من القوة، بعيداً عن أيّة مبادرة للمواجهة الحادّة العنيفة التي تنتهي بالحرب، لكان من المفروض أن يعود الإمام الحسين (عليه السلام) من حيث أتى، عند معرفته بأنّ ميزان القوة قد بدأ يميل إلى جانب خصومه.

وهكذا نرى أنّ الموقف كان حاسماً في الإصرار على الثّورة في خطّ الشّهادة، ولذلك وقف في كربلاء ليرفض كلّ العروض التي قدّمها إليه ابن زياد عبر جماعته، في تقديم السّلامة له ولأهل بيته ولأصحابه، بشرط أن يتنازل ليزيد، ويدخل في عمليّة صلح جديد معه، على طريقة الصّلح الذي جرى بين الإمام الحسن (عليه السلام) ومعاوية، أو على طريقة أخرى.

إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) وضع عناوين الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والإصلاح في أمّة جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في واجهة حركته، ليذكّر المسلمين الذين يريد لهم أن يكونوا معه، بالعناوين الشّرعيّة التي تفرض عليهم التحرك معه، وليحدّثهم بأنّ مسألته ليست مسألة تائر يتطلّع إلى السّلطة من موقع الزّهو والسيطرة الطّاغية، فليست القضية قضيّة تحدّيات المسألة الدّاتيّة في مواجهة مسألة ذاتيّة أخرى، بل هي للإيحاء إليهم بأنّ هذه العناوين، تفرض على كلّ النّاس الاستجابة لأيّة قيادة تعمل من أجل تحويلها إلى واقع حيّ، كما تفرض على القيادة أن تتحرّك من أجلها.

العنوان خاصّ أم عام؟

وقد يقول قائل، إنّ المسألة هي مسألة الإمامة التي قد تجعل لهذه الحركة خصوصيّتها في مسؤوليّات الإمام المعصوم، ولم تكن المسألة مسألة عناوين عامّة لأيّة قيادة أخرى.

والجواب: إنَّ الإمام لا ينطلق في حركته من خصوصيات المسؤولية الخفية التي لا يعرفها المسلمون معه، لأنَّ القضية هي قضية الإسلام فيما يجب عليه أن يحرك الأمة، لتحقيق له قوته وعزته وكرامته، من خلال عناوينه الكبيرة، وأهدافه الواسعة، ولذلك، فإنَّه ينطلق من قضايا الإسلام وعناوينه التي يشعر المسلمون معه بأنَّهم معنيون بها من خلال مسؤوليتهم عنها، لا من خلال الطاعة العمياء للإمام الذي تجب عليهم طاعته.

ولذلك، كانت طريقة القرآن في حديثه عن المعارك التي يريد للمسلمين أن يخوضوها، أو التي خاضها المسلمون قبل نزول الآيات، هي أن يقدم لهم العناوين التي يريد الله لهم أن يتحركوا من أجل تحقيقها في الواقع، لينطلقوا من موقع وعي للهدف، لا من موقع استسلام أعمى للأمر، وهذا ما لاحظناه في الآيات التي تحدّثت عن بدر وأحد وحنين والأحزاب وغيرها.

وهكذا رأينا العناوين الكبيرة التي وضعت في واجهة هذه المعارك التي انطلق بها المسلمون في كلِّ معاركهم ضدَّ الكفار، وهي التي انطلقت بها قيادة الإمام عليٍّ عليه السلام في الحرب الداخلية لتأكيد قوّة الموقع الشرعيّ، من دون أن تكون هناك أية خصوصيّة للعصمة في القائد أو للموقع المميّز له، بل كان الخطاب في ذلك للأمة كلّها في نطاق القيادة الشرعيّة - أية قيادة - على أساس حاجة المعركة في كلّ ساحات الصّراع إلى القيادة.

ولذلك، فإنَّنا نستطيع أن نستوحي من حركة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، أنّه كان يطرح شرعيّة المعركة من خلال عناوينها الإسلاميّة العامّة، لا من خلال خصوصيّة إمامته، وهذا ما نقرأه في خطابه الذي بدأ به مسيرته: «أيّها النّاس، إنّ رسول الله قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاًّ لحُرِّمِ الله، ناكثاً بعهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان،

فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيري».

وخطابه الآخر: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين».

وفي ضوء ذلك، يمكن لنا أن ندخل في مثل هذه التجربة على أساس شرعية الموقف، إذا كانت المرحلة شبيهة بالمرحلة التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام من حيث الظروف والأوضاع والمواقع، وبذلك تخضع المسألة في حركة العناوين الكبيرة في واقع الأمة لدراسة المرحلة الزمنية والسياسية في مدى الإيجابيات التي توفرها للمصلحة الإسلامية العليا على صعيد تغيير الواقع، أو إيجاد الصدمة النفسية أو السياسية التي قد تهز الأمة من أجل إعدادها لمرحلة جديدة، أو الإعداد للخطة الطويلة التي تحتاجها الثورة في مواجهة التحديات الكبيرة للاستكبار؛ فقد تحتاج القضية إلى الأسلوب الكريلائي، وقد تحتاج إلى الأسلوب الهادي الذي يفتح على السلام على أساس المرونة العملية التي تمثل أسلوب الانحناء أمام العاصفة ريثما تمر، ليبدأ التحرك في أجواء طبيعية ملائمة، وقد تمس الحاجة إلى أسلوب متنوع فيما بين الرفق والعنف، فيتحدّد الحكم الشرعي في نوعية الحركة تبعاً لنوعية الظروف الموضوعية الموافقة أو المخالفة.

حركة الأئمة عليهم السلام

وهذا ما يجب أن نرصده في أساليب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فلم تكن

المسألة مسألة اختلاف في النظرة إلى طبيعة العمل، بين موقف يؤمن بالعنف، وموقف يؤمن باللين، لتكون ذهنية الموقف الأول ذهنية عسكرية في نظرتها إلى طبيعة الصراع، بينما تكون ذهنية الموقف الثاني ذهنية سلمية في دراستها للواقع، بل كانت المسألة مسألة الاختلاف في الظروف الموضوعية التي تجعل من كل أسلوب ضرورة في مرحلته في علاقته بالهدف الكبير.

وهذا هو الأسلوب الإسلامي العام في خطوطه العريضة، فليس هناك خط للعنف في كل المواقع والمواقف بشكل دائم، وليس هناك خط للرفق في كل الساحات بطريقة مستمرة، بل هناك النتائج الكبيرة في حاجتها إلى هذا الأسلوب أو ذاك، فهي التي تحدّد للإنسان المسلم شرعية موقفه في القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والأمنية في ذلك كله»^(٤١).

العامل الثالث: اقربية هذا العرض العاطفي للنفس تجنّباً لأيّ تصادم مع الجهات الحاكمة أو أصحاب المصالح الذين تتعارض مصالحهم مع الفهم الحقيقي للدين ومبادئ العدالة والحرية وإحقاق الحق ومقارعة الظلم وإباء النفس والكرامة والعزة.

قال (قدّس سرّه): «هكذا نجد نماذج كثيرة من الناس، سواء كانوا من الشخصيات الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية الموجودة في المجتمع، تُكرّ على القارئ أن يتحدّث عن الثورة بطريقة تواجه السياسة القائمة، أو تواجه الأوضاع السياسية الدولية أو الإقليمية التي تنعكس سلباً على واقع الناس، لأنّ عاشوراء مناسبة دينية - حسب رأيهم - فعلينا أن لا نُسيء إليها بالسياسة. وينزعجون إذا وقف إنسان ليتحدّث عن عاشوراء - الثورة، وعن عاشوراء - الخط، وعن عاشوراء - الهدف، وعن عاشوراء التي تتحدّى كلّ جيل، لنقول له

(٤١) محمد حسين فضل الله: مقال بعنوان وقفات فكرية مع بعض مضامين عاشوراء، نقلاً عن موقع بينات.

أمام كربلاء: أين أنت؟ أين موقعك؟ وهل إن موقعك مع الحسين في أفكاره وفي طروحاته، وفي شعاراته، أو أنك مع يزيد في أفكاره وفي أطماعه، وفي خطوطه العملية؟» (٤٢).

العامل الرابع: انسجام هذا الطرح مع الرؤية الصوفيّة للأمر، كما اتّضح من خلال العرض المتقدّم في مقدّمة هذا العنوان. وفي نقد النظرة الصوفيّة البحتة قال: «ليس الإيمان خفقة قلب وليس الإيمان كلمة تنطق بها، ولكن الإيمان ذلك كلّ، وهو أن تعقد قلبك منفتحاً على الله، وأن ينطق به لسانك، فلا يكفي أن تعيشه في عقلك، بل لا بدّ أن تؤمن في هدى قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٣]، وأن تعلن ذلك للناس ليؤكّد موقفك، ليكون ذلك بمثابة الإحياء النفسي الذي توحى به لنفسك أنك لا تتحمّل مسؤولية إيمانك في داخل عقلك فحسب، ولكنك تسجّل على نفسك إيمانك أمام الناس ليحاسبوك على أساسه، ثم تعمل على أن تتحرّك في خطّ الإيمان، لأنّ قيمة الإيمان هي بمقدار ما يحركك وبمقدار ما يجعلك تستقيم في الطريق في كلّ واقعه.

إنّ المسألة هي أنّ الإيمان حالة في العقل وفي القلب ودليل الجديّة فيها هي أن يتحرّك الإيمان في الواقع، لأنّ الله لم يُرد لك فقط أن تعيش معه في الأجواء الصوفية التجريدية لتحدّث عن حبّك له وعن عشقك له وتنفصل عن الواقع، لكنّه أعطانا معنى حبّه، وهو ليس في نبضات القلب ولكنّه في حركة الواقع ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فعلامة حبّ الله أن نتّبع رسول الله في رسالته فذلك تأكيد على هذا الحبّ، وقد جاء في بعض الآيات:

تعصي الإله وأنت تظهر حُبّه هذا لعمرك في الفعل بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إنّ المحب لمن يحب مطيع

(٤٢) محمد حسين فضل الله: مقال بعنوان عاشوراء في قلب الحركة السياسية، نقلاً عن موقع بينات.

وقد جاء في بعض الأحاديث عن الإمام الصادق سلام الله عليه جواباً عن سؤال بعض الناس، قالوا: إن هناك من يقول: إننا نرجو الجنة ونخاف من النار، قال: «كذبوا، ليسوا برّاجين ولا خائفين، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه»، أنتم ترون الجنة لكنكم لا تطلبونها فيما يهيئ لكم الطريق إلى الجنة، وتخافون من النار ولكنكم تندفعون في كلّ ما يُقربكم من النار»^(٤٢).

وقال (رحمه الله) حول موقف الاستكبار من المسلمين: «إنّهم يقفون ضدّ الإسلام المتحرّك ولا مانع لديهم من الإسلام الذي يصليّ ويصوم، ومن الإسلام الذي لا يتدخّل في السياسة، والذي يقول: ما لنا وللدخل بين السلاطين.. إسلام مهذب معتدل موظّف عند أصحاب الجلالة والنفخامة والسيادة، إسلام لا يقف ضدّ أميركا والاستكبار، ويقول: لا بدّ أن نصلح الأنظمة، ونعيش مع الأنظمة (اللهم أعطنا خبزنا كفاف يومنا)!! هذا هو الإسلام الواقعي - حسب زعمهم - !!

عندما احتلّت بريطانيا العراق كان رئيس الأركان البريطاني- الذي لم يكن يعرف الأذان يسهر في إحدى مناطق العراق ليلاً، وإذا بصوت الأذان يرتفع، فظنّ أنّ هذا ينادي ليجمع الناس حتى يتظاهروا، فسأل عن الكلام الذي سمعه، فقالوا له: هذا يقول: الله أكبر. قال: هل يضرّ هذا بنفوذ صاحب الجلالة؟ قالوا له: لا. فقال: ليؤدّن من الصباح حتى الليل.

لذلك ما دمنّا مهذّبين مع الاستعمار والظلم والاستكبار وإسرائيل ولا نحرك ساكناً ونحارب بعضنا البعض، فالجماعة مستعدّون أن يعطونا المنّ والسلوى، ولكن إذا حملنا شعارات الحسين عيه السلام بقوة، إذا حملناها ونحن نكتفي

(٤٢) من كلمة المرجع السيّد فضل الله في ذكرى ولادة الإمام الرضا غير مؤرخة، نقلاً عن موقع بينات.

بالبكاء.. «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الدليل ولا أقر لكم إقرار العبيد»
«هيهات منا الذلة» إذا حملنا شعاراته وحرّكناها في الواقع، وحوّلناها إلى
مقاومة وإلى ممانعة وإلى معارضة، فعند ذلك نحن متطردون، متشدّدون،
أصوليون، خطر على السلم العالمي، وغير ذلك. نحن نريد أن نسالم العالم،
ونكون أصدقاء العالم، لكننا نريد أن نكون خطراً على الظلم كله، والاستكبار
كله، والكفر كله»^(٤٤).

العامل الخامس: القراءة الخاطئة أو القاصرة للنهضة الحسينية، بحيث
يُتصوّر أنّها مسألة علاقة شخصية بين الإنسان ومن يحبّ، بين الولي والمولى،
لتبقى في دائرة الحدث التاريخي المأساوي الذي يثير الأحران ويهيّج المشاعر
فقط.

وقد أشار إلى ذلك العلامة الراحل السيد محمد حسين فضل الله رحمته الله
حيث قال: «لا نريد أن نعيش في كربلاء التاريخ فحسب، فإنّ لكلّ جيل كربلاءه،
ولكلّ زمن عاشوراءه، ولكلّ ساحة من ساحات الصراع نموذجاً للحسين عليه السلام
ونموذجاً ليزيد، ولذا فإنّ علينا أن ننظّل في حركة الواقع نعيش كربلاء، لا أن
تبقى مجرد قصّة للتاريخ.

ولذلك فلا بدّ لكلّ جيل أن يكتشف الحسين عليه السلام في داخله، وأن يكتشف
يزيد في داخله، من أجل أن يقف مع الحسين عليه السلام وهو يتطلّع إلى كلّ الواقع
ليقول: «ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟» وليقف
مع الحسين يقول: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السّلة
والذّلة وهيهات منا الذّلة» وأن يقف ضدّ يزيد الذي كفر بالله ورسوله واستحلّ
كلّ محرّم.

(٤٤) محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، ص ١٢٤-١٢٥.

لا بدّ لنا أن نتابع المسيرة العاشورائيّة لا دموعاً نذرناها، وللدموع حرارتها وأصالتها، بل أن ننفذ إلى الواقع، وقد انطلق الحسين (عليه السلام) من أجل أن يغيّر واقع الإنسان في نفسه وحركته، وواقع المجتمع في حكمه، ليكون الحكم للإسلام صافياً نقيّاً، كما هو الحسين (عليه السلام) في صفائه ونقاؤه»^(٤٥).

وقال في موقع آخر: «عندما نريد أن نعيش كربلاء فعلينا أن نعيشها في هذا الخطّ، بأن تكون لنا كربلاؤنا في كلّ موقع، وعندما تعيش المرأة كربلاء فإنّ عليها أن تقف مع السيّدة زينب (عليها السلام) في كلّ مواقفنا ومواقفنا، مشكلتنا أنّنا أخذنا من زينب دموعها، ولم تكن دموعها كثيرة في عاشوراء، فقد كانت صلبة في موقفها صلابة الحسين (عليه السلام) في موقفه، ولكنّها عرفت مسؤوليّتها في أن تحمي الواقع هناك بعقلها وبقوّتها وبصلابتها، في مجلس ابن زياد، وفي مواجهة أهل الكوفة عندما خطبت خطبتها أمامهم، واستطاعت أن تصل إلى قمّة الصلابّة عندما وقفت في مجلس يزيد وهي تقول له: «فكّد كيدك وناصب جهدك فوالذي شرفنا بالوحي والكتاب.. لا تدرك أمدنا ولا تبلغ غايتنا ولا تمحو ذكرنا». هذه هي زينب النموذج، المرأة العاقلة الواعية المؤمنة، التي تتحمّل مسؤوليّتها من خلال إيمانها لتكون إنسانة القضية وإنسانة التحدي»^(٤٦).

(٤٥) المصدر السابق ص ١٨٤.

(٤٦) المصدر نفسه ص ٢٠٣.



الاستغراق في المعاجز

لاشكَّ بأنَّ على كلِّ مسلم أن يؤمن بوجود المعجزة، فالقرآن الكريم حدَّثنا عن معاجز الأنبياء ﷺ بصورة لا تقبل التردد أو التأويل، ولكن هل الأصل بالنسبة إلى تصرّفات الأنبياء ﷺ هو خرق قوانين الطبيعة والإتيان بالمعاجز، بحيث يكون انتظام الأمور وفق القوانين والسُّنن الكونية هو المخالف لها؟ وما أثر الخلل في تفسير ذلك على الإنسان؟ وهل هناك فرق بين المعجزة والكرامة؟ كي نصل إلى الإجابة على هذه التساؤلات علينا أن ندقّق - أولاً - في مفهوم المعجزة، ثم في الغرض من حدوث المعجزة وحدود ذلك.

تعريف المعجزة

عرّف العلامة الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (محاضرات في الإلهيات) المعجزة كما يلي: «المشهور في تعريف المعجزة أنَّها: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة». وأضاف: «ثم إنَّ الإتيان بما هو خارق للعادة لا يُسمى معجزة إلا إذا كان مقترباً بدعوى النبوة، وإذا تجرّد عنها وصدر من بعض أولياء الله تعالى يسمى «كرامة» وذلك كحضور الرزق لمريم ﷺ بلا سعي طبيعي»^(٤٧).

ويمكن أن نضيف مثلاً آخر على ما كان خرقاً للعادة دون أن يكون من المعاجز

(٤٧) السبحاني: محاضرات في الإلهيات، ص ٢٥٨.

وفق التعريف السابق، وذلك في مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. فهذا الأمر الذي صدر منه بإحضار عرش بلقيس من سبأ إلى القدس في أقلّ من لحظة، يحتمل احتمالين:

١ - أن يكون توظيفاً للقوانين العلميّة التي كان يعرفها ذلك المتحدّث، لاسيّما بلحاظ قوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: ٤٠] وهو ما لربّما يعني أنّه كان يمتلك من المعرفة في القوانين العلميّة ما أمكنه من توظيفها لتحقيق المطلوب، على تقدير أنّ (علم الكتاب) هنا هو العلم بـ (كتاب التكوين) أي (القوانين الإلهية المودعة في الطبيعة). وبهذا التفسير لن يدخل الحدث في ضمن المعجزة أو الكرامة، إلّا على قول بعض العلماء الذين يفسّرون المعجزة بأنّها توظيف للقوانين الطبيعيّة بصورة يعجز عنها سائر الناس.

٢ - أن يكون خرقاً للقوانين الطبيعيّة، ولكنّه لما لم يكن مقروناً بدعوى النبوّة، فلن ندخله في إطار المعجزة، ويمكن أن نسمّي ذلك العمل (كرامة) على سبيل المثال. وبالتالي فلا بدّ من التفريق بين المعجزة بالمعنى العلميّ الاصطلاحيّ، وبين ما هو دارج على ألسنة البعض من حصول (معجزة) بشفاء فلان بواسطة النذر أو بالدعاء وما إلى ذلك.. لا بدّ من أن نكون دقيقين في مصطلحاتنا كي لا تختلط المفاهيم والحقائق ببعضها البعض فتحدث عندنا ربكة على مستوى المفاهيم وعلى مستوى الأفعال.

معاجز الأنبياء

والمتعمّن في القرآن الكريم يدرك أنّ خرق القوانين بالمعاجز ليس هو الأصل في سلوك الأنبياء، ولذا قرّر المحقّقون أنّ المعجزة لا تأتي ابتداءً من

عند الله أو استجابة لطلب أحد إلا في ظروف خاصة وشروط معينة، ولا بد من وجود مبررات قوية لذلك.

ثم إن المعجزة ليست ملازمة للنبوّة، فقد بعث الله عدداً من الأنبياء دون أن يسدّدهم بالمعجزة، ولعلنا نجد مثال ذلك في قوله تعالى على لسان قوم النبي هود عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، وأحياناً كان الأنبياء إذا ما طلب الناس منهم معجزة، لا يستجيب الله لطلبهم، بل يأتي الجواب: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. وهذه نقطة مهمّة، وهي أنّ الإسلام يعلمنا أنّ الحياة لا بدّ من أن تسير وفق منطق السنن، منطق العلة والمعلوليّة.

قال المرجع السيّد فضل الله في تفسيره للآية القرآنية السابقة: «أنكروا الدليل على رسالته، واعتبروها مجرد دعوة لا تركز على أساس، لأنهم لا يريدون التأمل والتفكير فيما يدعوههم إليه من عبادة الله وحده، والإخلاص له في الطاعة، والارتباط به في خطّ السير، إذ لم تكن قضية دعوتهم إلى الإيمان بنبوّته هي المسألة الأولى لديه، بل كان همّه أن يقدم لهم الدليل على حجة نبوّته من دون حاجة إلى معجزة أو ما يشبه المعجزة.

وهنا ينبغي لنا الإشارة إلى نقطة مهمّة، وهي أنّ المعجزة ليست ملازمة للنبوّة، بل انطلقت المعاجز في بعض الموارد بهدف إيجاد الصدمة في الواقع الذي كان يتحرّك فيه الكافرون، باعتبار أنّ الواقع المستحكم كان يتطلب ذلك؛ فإنّ فرعون - على سبيل المثال - لم يكن يستمع لموسى عليه السلام لولا أنّ صدمته بالتحدي بالعصا التي تستحيل ثعباناً، أو باليد البيضاء، أو ما إلى ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عيسى عليه السلام في مجاله.

لذلك، لم تكن الرسائل تعتمد في دعوة الناس إلى الإيمان على المعاجز،

بل كانت تنطلق بهدف تحريك عقول الناس، ليكون ذلك هو الذي يحكم حركتهم في الحياة.

ولعلنا نلاحظ أن الإلحاح كان يركز على مضمون الرسالة لا على صفة الرسول، بحيث كانت صفة الرسولية طريقاً إلى الانسجام مع خط رسالته، وكان إنكارهم للبيّنة منطلقاً من عدم وعيهم للرسالة في ما تحمله من دلائل الصدق، واعتبارهم المعجزة في خوارق العادة هي الأساس في الالتزام بالدعوة. لذا رفضوا الابتعاد عن آلهتهم، وترك عبادتهم لها، باعتبار أن قوله لا يركز على دليل - بحسب زعمهم - وقد رفضوا الإيمان به كمجموعة متضامنة في الوقوف ضده. ولو كانوا جادّين في التزاماتهم الذهنية، لأداروا الحوار معه، ولسألوه عن وحدانية الله في منطق العقل وحركة التفكير، وعن السلبية في عبادة الأوثان، ولكنهم اختاروا العناد الذي لا ينطلق من قاعدة فكرية للرفض، بل ينطلق من حالة نفسية معقدة لا تتقبّل الخروج عن إرث الآباء والأجداد في هذه العبادة المتحجرة الخرافية الدالة على ذهنية التخلف الأعمى للإنسان. إنّ المشكلة هي أنهم رفضوا تغيير ما التزموه وألفوه مهما كان يُقدّم إليهم من دلائل ويُقام عليهم من حجج، وعلى الرغم من كلّ دعوات الحوار التي وُجّهت إليهم حول مناقشة السلبيات والإيجابيات في فرضيات هذه المسألة العبادية. ولذلك فقد اكتفوا بالإنكار من دون أساس^(٤٨).

إيمان العقل والفطرة

لذلك، لم تكن الرسائل السماوية تعتمد في دعوة الناس إلى الإيمان على المعاجز، بل كانت تعتمد على الاقتناع بالدليل الفطري أو العقلي، لتكون لفطرتهم السليمة وعقولهم الفاعلة الدور المهم في حركتهم في الحياة.

(٤٨) محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، في تفسير الآية ٥٢ من سورة هود.

ولعلّ إلى ذلك أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قال: «وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانِيَ الثَّمَارِ، مُلْتَفِّ الْبَنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمَرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحَدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُعَدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرَدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءَ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشُّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرِّيبِ مِنَ النَّاسِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِالْأَلْوَانِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكْبَرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتُّذَلِّ فِي نَفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلّاً لِعَفْوِهِ»^(٤٩).

فيمكن أن نستفيد - ضمناً - من هذه الفقرة من الخطبة القاصعة أن الله سبحانه لا يريد للناس أن يكون إيمانهم وهدايتهم من خلال ما هو خارق للعادة، بل من خلال القناعة القائمة على الدليل الفطري أو العقلي، بعد التخلي عن الكبرياء الزائفة التي تدفعهم للعناد، فالتكبر والعناد كلاهما من حجب العقل والفطرة.

خلود معجزة القرآن

ولو تمنعنا قليلاً في المعاجز سنجد أنها مؤقتة، إلا القرآن الكريم، فهو المعجزة الخالدة، ولعلّ ذلك يعود - في جانب منه - إلى أن تطوّر الحياة قائم من خلال العلم التجريبي أو التأملي الذي ينتجه العقل، والقرآن بعيد للعقل موقعه في حياة الإنسان، لذا فهناك تناغم بين الاثنين، بين طبيعة تطوّر

(٤٩) الشريف الرضي: نهج البلاغة، الخطبة القاصعة برقم ١٩٢.

الحياة، وبين ما يؤسس له القرآن، فهو معجزة متناغمة مع العقل، بل ومعجزة ترسخ دور العقل والعلم عند الإنسان المسلم.

وتعليقاً على وصية الإمام الكاظم عليه السلام: «يا هشام، إن ضوء الجسد في عينه، فإن كان البصر مضيئاً استضاء الجسد كله، وإن ضوء الروح العقل، فإذا كان العبد عاقلاً كان عالماً بربه، وإذا كان عالماً بربه أبصر دينه، وإن كان جاهلاً بربه لم يقم له دين. وكما لا يقوم الجسد إلا بالنفس الحية، فكذلك لا يقوم الدين إلا بالنية الصادقة، ولا تثبت النية الصادقة إلا بالعقل»^(٥٠) قال (رحمه الله): «.. وبذلك نعي أن عظمة الإسلام هو أنه يريد لك أن تعرف ربك بالعقل، وأن تبصر دينك بالعقل، ليقودك العقل إلى ضرورة إرسال الأنبياء، وإلى معرفتهم من خلال ما يملكونه من دلائل وبراهين، وما إلى ذلك. ولذلك قلنا: إن الإسلام هو دين العقل، كما نقول عنه إنه دين الفطرة. ولهذا فإننا لا نقول كما يقول النصارى، إن الإيمان فوق العقل، ولذلك فهم لا يستطيعون تفسير التثليث في عقيدتهم، من أن الأب والابن والروح القدس إله واحد، من ناحية البرهان والدليل العقلي. نحن نقول: إن العقل هو الذي يقود إلى الإيمان، وإن العقل هو الذي يؤكد الإيمان ويركزه ويمنحه في داخله الوعي والقوة. ولعلنا نستطيع القول: إن الإسلام إنما كان دين الحياة، وكان النبي ﷺ خاتم الأنبياء، لأن الإسلام انطلق من خلال العقل ومن خلال العلم الذي هو نتيجة حركة العقل، وهذا أمر يحكم حركة الإنسان تجاه كل مفردات الحياة، ولا يمكن للحياة أن تتجاوزه. من الممكن أن يُقال، إنه في الأديان السابقة، كانت المعجزة وسيلة من وسائل إثبات النبوة، وإن كنا نرى أن المعجزة إنما تأخذ بعدها الإيمان من خلال العقل أيضاً، ولكن الإسلام جاء بالمعجزة التي تعطي الإنسان عقلاً وهي القرآن، واستمر في الحياة ليكون خاتمة الأديان في

الحياة، باعتبار أن تطوّر الحياة إنّما هو من خلال العقل الإنساني، وأن امتداد الحياة إنّما هي من خلال العلم الذي ينتجه العقل، سواء كان العقل التأملّي أو العقل التجريبي»^(٥١).

معضلة العقلية المعاجزية

واعتبر المحقّق المعاصر الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي أنّ طبيعة العقلية (المعاجزية) تجعل قبول النصوص التي تتحدّث عن حصول المعجزة أمراً مقبولاً جداً، وإن لم تدخل المسألة في ضمن شروط تحقّق المعجزة. علاوة على أنّ قبول النصّ المتضمّن للمعجزة يحتاج إلى دليل قطعيّ أو يقارب القطع لكي يؤخذ به، وأنّه لا يمكن الاعتماد في مثل المعاجز على أخبار الآحاد، أي لم تبلغ حدّ التواتر.. «إنّ المعجزة خارقة للنظام الطبيعي، فإذا أردت أن تثبت شيئاً مختلفاً مع النظام الطبيعيّ فمن المنطقيّ أن تكون خطواتك هذه أكثر صعوبةً وعسراً ممّا أردت إثبات شيء غير خارق منسجم مع الطبيعة. إذاً، المعجز لا يثبت إلّا بدليل قطعيّ أو مقارب للقطعيّ، أي المتواترات أو ما يمكن الاعتماد عليه من النصوص المستفيضة. وهذا معناه أنّه لا يمكن الاعتماد في مثل المعاجز على أخبار الآحاد».

وأضاف أنّه: «لا يوافق علماؤنا علمياً على الكثرة العددية والكمية للمعاجز. نعم، إذا ثبتت المعجزات بدليل معتبر فلا يتنكرون لها، وإن كانت كثيرة. فالملك ليس صرف الكثرة، حتى تكون شفيعاً لصحّة المصادر التاريخية، وإنّ العكس هو الصحيح. ينبغي نقد نصوص المعاجز نقداً علمياً، حتى لا ننسب معجزة إلّا بدليل معتبر، ولا ينبغي علينا التأثير بهذا الجو».

وقال في بيان أحد أسباب الميل لذلك: «الظاهر أنّ البعض يحب أن يأتي

(٥١) فكر وثقافة، السنة التاسعة، العدد: ٣٩٦، نقلاً عن موقع بينات.

بشيء جديد.. الخبر الجديد الذي يظهر يجري تلقيه عن حُسن نيّة بوصفه مسموعاً من المسموعات، ومن هنا نلاحظ بعض القضايا المنقولة مليئة بالإضافات المعاجزيّة والخوارقيّة في المصادر التاريخيّة المتأخّرة، دون القديم منها، وهذا ما من شأنه أن يشكّل لنا قرينة على حصول إضافات أو زيادات بمرور الوقت والزمن^(٥٢).

ومما سبق يتبيّن أنّ الدافع للاهتمام بالروايات المعاجزيّة عدّة أمور، منها:

- ١ - عدم إدراك حقيقة المعجزة في مسوّغاتها وشرائطها وأهدافها.
 - ٢ - العقلية المعاجزيّة لشريعة من المستمعين وميلها لقبول هذه النصوص وإن لم تثبت بالدليل.
 - ٣ - حبّ النبي ﷺ وآله عليه السلام بما يدفع لقبول كلّ ما من يشتمل على مديحهم وفق هذا التصور.
 - ٤ - الرغبة في شدّ المستمعين من خلال الإتيان بما هو جديد.
 - ٥ - عدم تطبيق قواعد نقد الحديث باعتبار أنّها ترتبط بالتاريخ لا الشريعة، بينما ينبغي الانتباه أنّ المسألة تتعدّى التاريخ إلى العقيدة.
- ومن هنا كان على خطباء المنبر الحسيني تَوْخّي الدقّة في منقولاتهم الروائيّة، انطلاقاً من مسؤوليّة الكلمة والأمانة العلميّة من جهة، وحذراً من نفور شريحة يُعتدّ بها من المستمعين الشباب الذين باتوا ينقدون هذا النمط من الخطاب.

(٥٢) مجلة نصوص معاصرة، العدد ٢٠، حوار بعنوان (منهج البحث التاريخي: معايير الدراسة وأخطاء المؤرخين).

امتداد للفكرة الخاطئة

إلا أنه عندما ترسخ الأمر بتصوّراته الخاطئة امتدّ لتظهر ادّعاءات كثيرة بتحقيق المعاجز في هذا المجلس أو ذاك، أو مناسبات معينة، الأمر الذي بات يصدّقه كثيرون حتّى ممّن لديهم من التحصيل العلمي والثقافة العامة ما يفترض بهم أن يوازنوا العقل ويحكموا المنطق في ما يقال وينتشر دون دليل ولا حُجّة، سوى أنّ الأمر قد تمّ ربطه بأهل البيت عليه السلام أو بإحدى المناسبات المتعلقة بهم.

يقول سماحة الشيخ الفاضل حسين الخشن في هذا الإطار: «إنّنا نؤمن بمنطق المعجزة والكرامة، فالقرآن الكريم حدّثنا عن معاجز الأنبياء، فلا بدّ من أن نؤمن بذلك، ولا نتردّد فيه، فما نصّ عليه القرآن - مثلاً - نقبله بدون تردّد، لكن الذي يحصل في كثير من الحالات هو التوسّع في نقل الكرامات، والإسهاب في تثقيف النّاس بها، والاستشهاد بها بهدف إثبات حقانيّة عقيدتنا أو مذهبنا، ولذا يتمّ الحديث عن أنّ فلاناً حصل معه كذا، وفلاناً شُفي في المكان الفلاني وما إلى ذلك؛ هل هذه الطّريقة صحيحة؟ أنا لي عدّة ملاحظات على اعتماد هذا الأسلوب في التّثقيف العام:

١ - إنّ التّقدير الإلهي أو القانون الإلهي، قضى أن يجري هذا الكون وفق منطق السّنن وليس وفق منطق المعاجز والكرامات، فالمعاجز - وكذا الكرامات - هي استثناء، حتّى بالنّسبة إلى الأنبياء، وليس من شرط نبوّة النّبي أن يقوم بمعجزة، ولا قامت حياة الأنبياء على أساس المعاجز، وإنّما كانوا يعيشون حياةً طبيعيّةً، وأحياناً كانوا إذا ما طلب النّاس منهم معجزة، لا يستجيب الله لطلب النّاس، بل يأتي الجواب: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. إذّا، هذه نقطة مهمّة، وهي أنّ الإسلام يعلمنا أنّ الحياة لا

بد من أن تسير وفق منطق السنن، منطق العلة والمعلولية.

إن الأمة عندما ابتعدت عن الأخذ بمنطق السنن، وأصبحت تفتش عن أدوية لأمراضها من خلال التداوي بالقرآن أو بالأحراز، وتطلب النصر بالدعاء بدل إعداد القوة، عندها تخلفت وتأخرت وأصبحت على هامش الأمم.

٢ - لا بد من التوثق من هذه المعاجز أو الكرامات قبل أن تُطرح على الرأي العام، فعندما يأتي شخص ويقول لك: هناك شجرة في المكان الفلاني، يرشح منها الدم في العاشر من محرم كل عام، فلا تقبل ذلك ببساطة وسذاجة، بل توثق من الخبر. أنا أذكر أن أحدهم جاء إلى أحد علمائنا الكبار، أحد الفقهاء، وقدم له كتاباً ألفه حول قصة هذه الشجرة التي يرشح منها الدم في عاشوراء، وطلب منه أن يكتب له مقدمة لذلك الكتاب، فقال له الفقيه: أنا مستعد، لكن بشرط أن تجلس أنت تحت هذه الشجرة ٣٦٥ يوماً، فإذا لم يرشح منها الدم في كل هذه المدة، باستثناء اليوم العاشر، ساعتيذ أفكر في أن أكتب لك مقدمة لكتابك. لذا لا بد من التوثق من هذه الأمور. إن كثيراً من الأمور تلقى على عواهنها، وهي لا أساس لها من الصحة.

٣ - إن منطق الأمور العجائبية، ربما لا يكون هو المنطق السليم لإحقاق الحق ودحض الباطل، فغيرنا يطرح الكثير من هذه الأمور، وأنتم تسمعون بذلك وتشاهدونه على شاشات التلفزة، مما يحكى عن بركة لتمثال رشح منه الزيت وشفي منه فلان أو فلان، إلى غير ذلك من القصص العجائبية التي تُنقل ويتداولها الناس، وربما يتم في ضوئها تطويب بعض الكهنة، ولو أننا تجاوزنا أصحاب الأديان السماوية، وذهبنا إلى الهندوس، سنرى أمثال هذه القضايا التي قد تكون أحياناً مبنية على علم معين أكثر مما تكون كرامة.

ولهذا، فإننا نعتقد أن حقانية الدين أو المذهب، هي في امتلاكه الحجة،

واعتماده على المنطق، وإنَّ قوَّة المنطق في رسالة الحسين عليه السلام، هي التي تثبت حقانيَّة هذه النهضة، وليس حصول عجيبة أو كرامة مع فلان أو فلان.

إنَّ كلامي هذا لا يشكِّل دعوة إلى التشكيك أو رفض كلِّ ما يُنقل إلينا من الكرامات، بل إنِّي أدعو إلى التعامل مع هذه الأمور وفق القاعدة المعروفة المنقولة عن ابن سينا: «كلُّ ما طرق سمعك فذرْهُ في بقعة الإمكان، حتى يذودك عنه قاطع البرهان». لكنني في الوقت نفسه، أدعو نفسي، وأدعو غيري من الخطباء، إلى احترام عقول النَّاس، وأن نتقَّفهم بالثقافة المثمرة على أقلِّ تقدير، فلا نطرح الأمور التي تثير انقساماً وبلبلَةً في وسط من يستمع إلينا، وربَّما يسمُنَّا الآخرون بالكثير من الصِّفات السلبية، ولنكن على الأقلِّ ممَّن يعمل بوصيَّة رسول الله ﷺ: «إنَّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلِّم النَّاس على قدر عقولهم» ^(٥٢).

أسى وتألّم

وأخيراً، يُبدي المرجع الراحل تألّمه من أسلوب التعاطي مع أهل البيت عليهم السلام وحصرهم في أطر ضيقة كالإطار المعاجزي أو إطار المأساة بقوله: «لقد تحدّثنا أكثر من مرّة عن أنَّ مشكلتنا مع أهل البيت عليهم السلام هي أننا حبسناهم في سجن المأساة فقط، وعندما أطلقنا آفاقهم أطلقناها فقط في جانب المعاجز والكرامة، أمّا فكرهم ومنهجهم في الحياة وخطّهم النبويّ الأصيل، ومنهجهم القرآنيّ الشامل، وكلِّ ما قالوه وما تحرّكوا فيه ممّا يمكن أن يكون جواباً على الأسئلة والاستفهامات والمشاكل التي يتخبّط فيها جيلنا وأجيال المستقبل، فليس هناك عمل بالقدر المطلوب لإبرازه وبيانّه.. لقد عزلناهم عن حركة الحياة وأدخلناهم في حركة الدّموع فضيقنا واسعاً.

(٥٢) من محاضرة ألقاها سماحة الشَّيخ حسين الخشن في اللَّيلة التاسعة من ليالي عاشوراء ١٤٣٢هـ في مسجد الإمامين الحسينين عليهما السلام، لبنان، نقلا عن موقع بينات.

لقد حضرتم في هذا الموسم أكثر من مجلس بمناسبة وفاة الزهراء عليها السلام، فماذا سمعتم عن فاطمة الزهراء عليها السلام؟ أنا هنا أتكلّم بشكل عام، لأنّ من الخطباء من يحملون مسؤوليّة التوعية في خطّ أهل البيت عليهم السلام، ولكن الجوّ العام يتحدّث عن المأساة وعن المظلوميّة، ونحن نوّكّد المظلوميّة، ولكنّها كانت مظلوميّة في خطّ الرسالة، ولم تكن مظلوميّة باكية، بل كانت مظلوميّة تختزن العنفوان والقوّة والتوعية والنقد والمواجهة في ذلك كلّه.

لذلك أقول: أخرجوا أهل البيت عليهم السلام إلى الهواء الطلق وستروّن أنّهم يصنعون لكلّ جيلٍ درباً جديداً وحياة جديدة وطريقاً مستقيماً. أدرسوا عليّاً عليه السلام في (نهج بلاغته) أيضاً، لا تدرسوه في حركة سيفه فقط، أدرسوا الأئمّة عليهم السلام في كلّ هذا التراث العظيم الذي يتنوّع في مواقع المعرفة التي يحتاجها الإنسان، ولقد أطلقت مرّة صرخة مدوية: كم من المسلمين من يحفظ فكر عليّ عليه السلام في (نهج البلاغة)؟ فنحن نحفظ قتل «مرحب» وقتل «عمرو بن عبد ود»، ولكن ما هو فكر عليّ عليه السلام في العلاقات الإنسانيّة، ما هو فكره عندما يتحدّث عن الله تعالى وعن الرسول ﷺ وعن الرسالة، وعن الحياة في أوضاعها كلّها، إقرأوا (نهج البلاغة)، وإذا لم تستطيعوا أن تحفظوا خطبة طويلة فاحفظوا الكلمات القصار التي في آخر النهج، فكلّ كلمة قد لا تتعدّى السطر أو السطرين، لكنها تحمل من الفكر ومن الوعي ومن حركة الحياة ما يمكن أن نملاً به كتباً.

لذلك فإنّ مشكلة عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام والزهراء عليها السلام في قمتهم هي عدم استفادة الناس منهم، ألم تسمعوا عليّاً حينما قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي بطرق السماء أعرف منّي بطرق الأرض»، فقام إليه شخص وقال: كم شعرة في رأسي؟ إنّ الكثيرين منّا في ما يتحدّثون به وفي ما يتناقشون به ومما يثيرونه من أشياء هامشية، قد يقولون لعليّ عليه السلام وللزهراء عليها السلام وللأئمّة عليهم السلام كم شعرة في رأسي؟ لأنّ ضيق الفكرة هنا هو ضيق الفكرة

نفسه هناك، ولقد أراد عليّ عليه السلام من خلال رسول الله ﷺ، وكذلك أراد لنا أبناؤه عليهم السلام وزوجته الطاهرة عليها السلام، أن ندخل الحياة من الباب الواسع، ولكننا نريد أن ندخلها من الزوايا المنغلقة، فمشكلة أهل البيت عليهم السلام أنهم أرادوا أن يفتحوا لنا أبواب الوعي، ونحن نريد أن نجبر ذكراهم إلى جوّ التخلف، لأنّ المتخلفين لا يحبّون إلّا أن يعيش الآخرون معهم في أجواء التخلف»^(٥٤).

(٥٤) محمد حسين فضل الله: الزهراء القدوة، ص ٢٤٦.



الاعتماد على الأخبار الضعيفة

في الوقت الذي تختلف فيه نظريات المحققين حول معايير الأخذ بالروايات والأخبار التاريخية، وقول الأكثرية منهم بالتسامح فيها فيما لا يُتسامح فيه فقهاً، وبالتالي إمكانية الأخذ بالكثير من روايات الضعفاء والمجاهيل والأخبار المرسلة، إلا أن هذا لا يعني فتح الباب أمام الروايات والأخبار التي لا تصمد أمام أقل انتقاد قد يلتفت إليه حتى من لا يمتلكون إلا ثقافة بسيطة في هذا الاتجاه.

ويمكن أن أشير على عجلة إلى عدّة سلبيات يمكن أن تترتب على نقل هذه الأخبار الموهونة وبثّها من خلال المنبر الحسيني، وهو ما يتداوله الناس أثناء وبعد كل موسم عاشورائي، إمّا من باب التردد في القبول ومحاولة التأكد من إمكانية قبولها، أو الانزعاج وعدم الارتياح من دلالاتها، أو حتى من باب التفكّه والتندر.

١- وسيلة لنقل الأخبار الموضوعية من خلال منبر يكتسب من القداسة عند الناس المستوى الكبير، ممّا يضيف على هذه المنقولات هالة من القدسيّة تدفع الكثيرين لقبولها تكريماً للمنبر ومعتليه.

٢- مخالفة الشرع والفطرة وحكم العقل.

٣- الإخلال بمعارف الناس التاريخية وإرباك معاييرهم وتصوّراتهم حول

التاريخ الإسلامي وما سبقه. ويمكن أن نركّز هنا على نهضة الإمام الحسين عليه السلام باعتبار أنّها تأخذ المساحة الأوسع من العرض التاريخي في هذه المجالس، وكيف أنّها تتأثر سلباً في الذهنية العامة من خلال الإتيان بالأخبار الموهونة. وقد كفانا الشهيد مرتضى المطهري وبعض المحققين مؤونة الاستغراق في هذا البحث، ومن أحبّ فليراجع ما كتبوا وما قالوا.

٤ - الإخلال بالمعارف التاريخية يؤدي إلى الإخلال في المعرفة الدينية ككلّ، لعدم إمكانية التفكيك بين ما هو تاريخ وبين العقيدة والأخلاق بل وحتى الشريعة من حيث التأثير والتأثير.

٥ - إحداث ردّة فعل سلبية ضدّ الإسلام أو التشيع ككلّ عند شريحة من الشباب - لاسيّما المثقفين منهم - بسبب توقّفهم عن قبول مثل هذه الأخبار، وبالتالي انسحاب الصورة الخرافية لديهم إلى الدّين ككلّ.

٦ - إفساح المجال بأوسع صورة ممكنة للمتصيّدين من الطوائف والمذاهب الأخرى، ومن العلمانيّين لتأكيد أقوالهم بخرافية الإسلام أو التشيع. ويمكن الاطلاع على نماذج من ذلك في (اليوتيوب) وأمثالها من القنوات والوسائل الإعلامية المنتشرة في العالم.

٧ - تفسير الآخرين من الإسلام والتشيع بالذريعة السابقة نفسها.

وما ذكرته آنفاً بخصوص الأخبار التاريخية ينسحب أيضاً على الروايات العقدية والتفسيرية والأخلاقيّة وسواها، قال سماحة الفاضل السيّد جعفر فضل الله: «وما من شك أنّ هذه الأمور قد أظهرت مُشكلةً في طبيعة المضمون العقيدّي والفكرّي الذي يُبيّث في المناسبات المتنوّعة؛ إذ بتنا نجد مضامين قد تصطدم بالقرآن أحياناً، وأحياناً بما ثبت قطعاً من السُنّة، وأحياناً ببديهيّات

العقل، وأحياناً بجمع بين المتناقضات، أو بتجاوز إشكالات منطقية تفرضها طبيعة الموضوع، وما إلى ذلك مما يجعلنا أبعد عن المضمون الفكري أو العقيدي للإسلام في الوقت الذي نعتقد فيه أننا أقرب إليه.

ومن الواضح أن تحول الإحياء إلى مهنة انحصرت في حدود الصوت والأداء، أي الشكل، بعيداً عن المتطلبات الرسالية – بما تعنيه من توقّر مستوى راقٍ من البناء الفكري والثقافي لمن يمارسها – أدّى إلى انشداد الجماهير إلى بعض أفرادها الذين لا يتمتّعون بأدنى مقومات الثقافة الإسلامية أو القدرة المنهجية على النقد والتحليل لأيّ مضمون، قبل إلقائه على الناس، مع أنّهم ينسبون المضمون الذي يلقونه على الناس إلى الله والرسول وإلى الإسلام^(٥٥).

وأشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه أبو بصير عن الصادق عليه السلام حيث قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «رحم الله عبداً حبّبنا إلى الناس ولم يبغضنا إليهم. أما والله لو يروون محاسن كلامنا لكانوا به أعزّ، وما استطاع أحد أن يتعلّق عليهم بشيء، ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحطّ إليها عشرًا»^(٥٦).

وفي الخبر الآخر عن عبد الأعلى بن أعين قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «.. والله ما الناصب لنا حرباً بأشدّ مؤونة من الناطق علينا بما نكره»^(٥٧).

المصادر المعتبرة

وتأتي سيرة الثورة الحسينية وتفاصيلها كمفردة من المفردات التاريخية التي تُطرح بشكل مشوّه من خلال بعض المنابر، وقد تعرّض لهذا الأمر العديد

(٥٥) جعفر فضل الله: مقال بعنوان إحياء المناسبات الإسلامية وضرورة النقد، نقلاً عن موقع بينات.

(٥٦) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٤٨.

(٥٧) المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ١٥٢.

من العلماء والمثقفين بحثاً وتحقيقاً ونقداً، ولسماحة الشيخ حسين الخشن حديث حول المصادر التي ينبغي اعتمادها وتلك التي يجب تجنبها من خلال ما يطرح على المنبر الحسيني أنقله لعموم الفائدة، قال: «أما المصادر المعتبرة، والتي ينبغي أن تتحقق الأمة على أساسها، لأنّ التثقيف مسؤولية، وهي مسؤولية مشتركة بين الخطيب الذي يقوم بتثقيف الناس، والمستمع الذي لا بدّ له من أن يعرف كيف يتقن وعمّن يأخذ ثقافته، فإنّ المصادر المعتبرة للثقافة العاشورية وللثقافة الإسلامية عموماً هي:

أولاً: القرآن الكريم ويأتي على رأس هذه المصادر، فهو المصدر الأول للثقافة الإسلامية، بل يمتاز بأنّه المرجع الذي تُحاكم على ضوئه كافة المصادر ممّا ستأتي الإشارة إليها. وإذا لم يكن هناك شكّ في أنّ القرآن الكريم هو مصدر الثقافة الإسلامية الأول، فإنّ المهمّ أن نعرف كيف نفهم القرآن، وكيف نقدّمه إلى الناس، لأنّ البعض ربّما يفتح بعض الأبواب في تأويل القرآن، ممّا هي في حقيقتها خروجٌ عن ظاهر القرآن، بل ربّما كانت تحريفاً للقرآن. فمثلاً، تسمع في بعض الأحيان من يفسّر لك قوله تعالى في ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]: الكاف هي كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، والعين عطش الحسين، والصّاد صبر الحسين... ونحن نتساءل: ما مصدر هذا الكلام؟ فإنّ القرآن الكريم ليس ألفاظاً ولا أحاجي، القرآن الكريم هو بيان وتبيان للناس، كما هو نصّ الآيات الكريمة، وهل أئمة أهل البيت اعتمدوا هذا المنهج التأويلي في تفسير القرآن؟ بالطبع لم يعتمدوا هذا المنهج. عندما سُئل بعض الأئمة: إنّ بعض أصحابك يقولون في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، فهل الخمر والميسر يقصد بهما رجال، واجتنبوهم يعني اجتنبوا فلاناً وأبغضوا فلاناً؟.. فماذا علّق الإمام؟ قال: «ما كان الله

ليخاطب خلقه بما لا يعلمون»، أي إنّ الله أجلّ من أن يخاطب قومه بما لا يعقلون وما لا يفقهون. إذاً القرآن الكريم هو المصدر الأوّل للثقافة الإسلامية.

ثانياً: المصدر الثّاني للثقافة العاشورائيّة الإسلاميّة هو السّنة، وأقصد بالسّنة هنا ما يشمل السّيرة والتّاريخ الصّحيح، ولكن حتّى يجدر بنا أن نتقّف النّاس بالسّنة، لا بدّ من التّوثّق منها، وأن تكون معتبرة. والاعتبار هنا، أيّها الأحبّة، ليس بالضرورة أن يكون بالمعنى الفقهيّ للاعتبار، يعني أن نمتلك حديثاً صحيحاً يرويه الثّقاة، لأنّه إذا كان الأمر على هذه الشّكلة، فأكثر الخطباء لا بدّ من أن يتوقّفوا عن صعود المنبر، إذ كلّ رواية أو قصّة يُراد نقلها، لا بدّ من أن تكون واردة في سندٍ صحيح، وهذا ما لا يتيسّر غالباً. بل إنّنا قد نكتفي بالاعتبار التّاريخيّ عندما لا تتصلّ القضية بمفهوم عقيدتيّ أو حكم شرعيّ، ونقصد بالاعتبار التّاريخيّ، أن يكون للحادثة التي ننقلها إلى النّاس مصدر تاريخي معتبر.

ولكن عندما نقول بأنّ السّنة هي مصدر للثقافة العاشورائيّة، فإنّ لذلك شروطاً وضوابط، فالخبر والسّنة والحديث المعتبر، إنّما يكون ذلك حجّة بشرط أن لا يعارض كتاب الله، ولا يعارض العقل الفطريّ، ولا يعارض المسلّمات العلميّة، فالخبر الذي يعارض القرآن الكريم لا يساوي فلساً، حتّى لو كان صحيح السّند، فضلاً عمّا إذا لم يكن صحيح السّند.

ولهذا، لا بدّ من أن نتوثّق من الأخبار لتكون منسجمةً مع المفاهيم القرآنيّة، عندما يقدّم لنا الخطيب حديثاً أو قصّة فيها ما يهتك حرمة الإمام الحسين (عليه السلام) وينافي عزّته وكرامته، فلا يمكن قبول ذلك. إنّ أيّ خبر يخدش حرمة مؤمنٍ عاديّ، فضلاً عن أن يخدش حرمة نبيّ أو وليّ،

يُضرب به عرض الحائط، لأنه يُنافي الكتاب الكريم الذي أكد كرامة الإنسان وعزة الرسول وكرامة المؤمن: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

عندما يأتي خبر على سبيل المثال يذم بعض الأقوام وبعض الشعوب وبعض الأعراق، هذا لا بد من طرحه، يوجد لدينا بعض الروايات تقول: «إِنَّ الْأَكْرَادَ حَيَّ مِنَ الْجَنِّ كُشِفَ عَنْهُمْ الْغُطَاءُ»، فمثل هذه الأخبار تنافي روح القرآن ومفاهيمه الأصلية التي جاءت لتقول: لا فرق بين مسلم وآخر، وبين إنسان وآخر، إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهكذا، لا بد لأي خبر من أن لا يتنافى مع معطيات العقل الفطري، فالخبر الذي تشعر بأنه يتنافى مع فطرتك، عليك التأكد من صحته. طبعاً هنا لا بد من أن ننبه إلى أن المعيار في رفض الخبر ليس مخالفته للذوق أو الاستحسانات الخاصة، وإنما المعيار هو العقل الفطري، والفطرة السليمة المودعة في الإنسان، والتي كانت إحدى وظائف الأنبياء أن يحركوها. جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام وهو يحدد وظائف الأنبياء تجاه الأمة، يقول: «ويثيروا فيهم دفائن العقول»، يعني أن العقل قد يعلوه الغبار والصدأ، ويأتي النبي ليثير هذه الدفينة وهذا الكنز الذي اسمه العقل أو الفطرة.

فهذا إذاً معيار، وعندما نطرح سילاً من الأحاديث والأخبار على الناس ولا نتوثق منها، ولا نطابقها مع مفاهيم القرآن، فإن على الناس أن تتصدى لذلك، وأن تُحاكم، وأن لا تستسلم لكل ما يُلقى عليها. وهذه إطلالة سريعة على أهم المصادر المعتبرة للثقافة العاشورية والإسلامية.

المصادر غير المعتبرة

أنتقل إلى الحديث عن المصادر غير المعتبرة في الثقافة العاشورية،

والتي يعتمدها الكثيرون من الخطباء والمتكلّمين الحسينيّين، من قرّاء العزاء وغيرهم. ومن هذه المصادر:

أولاً: الأخبار والروايات غير المؤثّقة، والتي ليس لها اعتبار فقهيّ، ولا اعتبار تاريخيّ، كما هو الحال في كثير من أخبار كتاب (أسرار الشّهادة) للدّربندي، أو غيره من الكتب التي يعتمدها بعض قرّاء العزاء، وينقلونها إلى النّاس دون تثبّت، مع أنّ وجود الرواية في كتاب معتبر - فضلاً عن أن يكون غير معتبر - ألفه عالم جليل لا يعني أنّها معتبرة، كما هو الحال في روايات بحار الأنوار، حيث إنّ العلامة المجلسيّ هو نفسه لا يضمن صحّة أخبار كتابه، بل قد يقول: «وجدتُ في كتاب قديم»، فهو نفسه يشهد بأنّ مصادر كتابه - فضلاً عن رواياته - ليست بأجمعها معتبرة، ومجرّد أنّ الرواية مذكورة في «البحار» أو غيره، لا يبرّر لك أن تأتي وتثقف الناس بها..

أجل، إنّ بعض الأخبار قد لا يكون لها إسناد بالمعنى المعروف فقهيّاً، لكنّها تمتاز بقوة في مضمونها، ولها كيمياء خاصّة، وعليها حلاوة تشهد بصورها عن الإمام عليه السلام، وقد ورد في بعض الروايات: «إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وإنّ على كلّ صواب نوراً»، فإذا كان للكلام هذه القوّة في المضمون، وكان منسجماً مع القرآن، حينئذٍ يمكن أن أطرحه على النّاس وأنقله إليهم وأثقفهم به، أمّا الأخبار التي لا تملك اعتباراً فقهيّاً، ولا اعتباراً تاريخيّاً، والتي لا تملك هذه القوّة في مضمونها، لا يجوز أن أثقف النّاس بها. ومن الغريب أنّ بعض الخطباء يسندون بعض القصص والأخبار إلى (أرباب المقاتل) دون تثبّت، أو يقول لك: حدّث بعض الخطباء، فيصبح المصدر هو بعض الخطباء، خطيب ينقل عن خطيب؛ إنّ هذا ليس مصدراً معتبراً لنقل الرواية ولبناء الثّقافة الإسلاميّة.

ثانياً: المنامات؛ حيث نلاحظ أنّ بعضهم يكثر سرد المنامات على المنابر، ويستشهد بها ويثقف الناس بها، فهل المنام حجة شرعاً، أو هل يمكن أن يشكل مصدراً للثقافة الإسلامية؟

والجواب: إنّ منام النبي هو وحي، فعندما يرى النبي إبراهيم في منامه أنّه يذبح ابنه، فهذا وحي من الله، ولكنّ منامي أنا أو أنت، هل هو حجة شرعاً، وهل يشكل مصدراً للثقافة الإسلامية؟ الجواب: كلا، هو ليس حجة شرعاً، فالأحكام الشرعية لا تؤخذ من المنامات. فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، وهو صحيح السند، وقد سُئل عن بعض الأمور العبادية التي رُئيَتْ في المنام، فقال: «إنّ دين الله أعزّ من أن يُرى في المنام»^(٥٨). ولذلك يُنقل عن الشيخ جعفر كاشف الغطاء: «إنّ الأحلام ليست شواهد الأحكام، باتّفاق علماء الإسلام». هذا بالنسبة إلى الأحكام الشرعية، وهكذا الحال في التثقيف العام، في المفاهيم، في الأخلاق، لا يمكن اعتماد المنام كحجة أو دليل، ولا سيّما أنّ المنام بحاجة إلى من يعبره لنا، بحيث يكون عندنا شخص مثل يوسف عليه السلام الذي خصّه الله بقدرته على تفسير الرؤى والأحلام، ولذا عندما رأى العزيز سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف، لم يستطع أحد سواه تعبير هذا المنام. على أنّ بعض المنامات ليس لها تعبير، وإنّما هي مجرد أضغاث أحلام، كما ينصّ القرآن الكريم، لهذا لا يمكن لي أن أقف على منابر المسلمين وأطرح عليهم سيلاً من المنامات التي لا يُعرف من رآها، وهل لها اعتبار أم لا، وهي ليست ذات اعتبار، وإن كانت قد تصلح لأن تكون بشارات أو نذراً، كما جاء في بعض الروايات. فعلينا أن نحاذر جيداً من هذا الأمر»^(٥٩).

(٥٨) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٥٩) من محاضرة ألقاها سماحة الشيخ حسين الخشن في الليلة التاسعة من ليالي عاشوراء ١٤٢٢ هـ في مسجد الإمامين الحسين، لبنان.

نقد السيرة الحسينية

وقد تحدّث المرجع الرَّاحل عن مواقفه حول هذا الموضوع الحساس في أكثر من مناسبة مبيّناً الأسباب والسلبيات المحيطة بالموضوع، وأصرّ على مواصلة الطريق على الرغم من كلّ العقبات التي أُثِرت في وجهه من قِبَل من أطلق عليهم صفة (الخرافيين)، وكان يؤكّد حتى أواخر حياته المباركة أنّه لن يجاملهم.

ويأتي جوابه على السؤال التالي: «كلّ سنة في ذكرى عاشوراء تكون السيرة الحسينية هي المادّة الأساسيّة لإحياء هذه الذكرى، من أين جاء نصّ السيرة الحسينية؟» في إطار التأكيد على ضرورة نقد السيرة الحسينية المطروحة على المنابر دون تمحيص وتدقيق، حيث قال (قدس سره): «لعلّ من أوثق المصادر التي تحدّثت عن السيرة الحسينية ما جاء في تاريخ الطبري، وفي كتاب (اللّهوف في قتلى الطفوف) للسيد ابن طاووس، وعندما يدرس الإنسان هذين النصّين يجد أن هناك توازناً معقولاً في عرض الواقعة بحسب ظروفها الطبيعيّة، وبحسب الإمكانات الموجودة في داخلها. ولكن هذه الواقعة باعتبار أنّها انطلقت في بدايتها من عمق الحزن كعنصر إثارة في حركة هذه المأساة في الزمن، ما جعل مسألة الحزن المأساويّ يتّخذ عنصراً أساسياً في وعي الكثير من الأجيال التي عاشت هذه الذكرى في التاريخ.

ومن الطبيعيّ أنّ الحزن المأساويّ يحتاج إلى الكثير من عناصر الإثارة التي يمكن أن تفتح المشاعر والأحاسيس على أكثر من قصّة تجتذب الأنظار، وتدفع بالوجدان إلى أن يتحرّك بشكل مثير في مواجهة الواقعة. ولذا رأينا أنّ الذين يثيرون العزاء بدأوا يتسابقون ويتنافسون في أساليب الإثارة، ومن الطبيعيّ أنّ مثل هذا الأمر هيأ الجوّ لكثير من حالات الوضع للأحاديث، والقصص وما إلى

ذلك، وهذا ما أدركه المرحوم السيد محسن الأمين، فكتب (المجالس السنيّة) كتجربة في هذا المجال، وهذا الكتاب يشتمل على مجالس عاشورائية، يقدّمها لقراء التعزية من خلال الروايات المعقولة فيما يراها هو، وإن كان البعض يرى أنّ التجربة ليست ناجحة بشكل دقيق جداً، ولكنها مثّلت خطوة إلى الأمام.

وكذلك رأينا أن الشهيد مطهري في كتاب (الملحمة الحسينيّة) في محاضراته حول هذا الموضوع، أثار كثيراً من علامات الاستفهام حول كثير من الروايات، ونحن نعتقد أنّ عرض السيرة الآن أصبح يصطدم بالكثير من القضايا والقصص والأجواء التي يمكن أن تثير علامات الاستفهام.

ولعلّ حجة الكثيرين ممّن يرفضون الدخول في النقد العلمي الموضوعي لمثل هذه القصص أو الأحاديث، أنّ المسألة هي من المسائل التي يُراد بها إثارة المأساة، وليست هناك أية مشكلة تتّصل بالجانب العقيدي، أو تتّصل بالقضايا السلبية في واقع السلوك الإسلامي في خط القضية الحسينيّة، ولا سيّما أن هذا قد يستثير الكثير من ردّات الفعل الشعبيّة، باعتبار أنّ الكثير من هذه المفاهيم دخلت في عمق الحسّ الشعبي.

ولكنّا لا نوافق هؤلاء، ونجد أنّ من الضروري نقد نصّ السيرة الحسينيّة، كنقد نصّ السيرة النبويّة الشريفة، كنقد أيّ نصّ تاريخي، لأنّ التاريخ وإن ابتعد عنّا فهو قد دخل في وجداننا الثقافي، وإحساسنا الديني، وحركتنا السياسيّة، وبناءً على ذلك فعندما تقدّم بعض الصور غير الواقعية، على أنّها تمثّل الشرعية، باعتبار أنّها تُنسب إلى الحسين (عليه السلام)، الإمام الذي يُعتبر قوله وفعله يمثلان الخطّ الشرعيّ الصحيح، فإنّ ذلك سوف يدخل حتّى في حركتنا الثورية في ما هو شرعيّ وما هو غير شرعيّ.

إنّني أتصوّر أنّ من الضروري أن ينطلق النقد بشكل موضوعيّ علميّ، يمكن أن

نحصل من خلاله على سيرة متوازنة، وإذا لم تكن هي الواقع، فلا مانع من أن نحاول أن تكون الأقرب إلى الواقع، مع إبقاء الجوّ المأساوي في عناصره الداخلية. وأعتقد أنّ قراء التعزية إذا كانوا يملكون أسلوباً أدبياً فنياً في طريقة التعبير، وعناصر الإثارة، فإنهم يستطيعون أن يحركوا المأساة في قضية الإمام الحسين عليه السلام من دون الحاجة إلى قصص وحكايات جديدة»^(٦٠).

الكذب المرفوض

ثم سئل: سماحتك ورد لك عبارة تقول فيها: نستنزف دموع الناس بالكلمة الصادقة والكاذبة. في بداية الحديث نحن بدأنا بهذا الموضوع وورد في جوابك السابق ما يوضح العبارة، لكن السؤال من ناحية شرعية: هل الكذب في هذا المجال جائز؟ فأجاب: «الكذب حرام في كلّ موقع إلا في المواقع التي يمثّل الكذب حماية للقضايا الكبرى، كما كنت أعبر دائماً: عندما يحقق معي العدو ليطلب منّي أسرار شعبي، من أسرار سياسيّة أو اقتصاديّة، أو أسرار المقاومة، ويطلب منّي أن أحلف بالله العظيم، فإنّنا نعتبر أنّه يجب الكذب في هذه الحال ويحرّم الصدق، وهكذا إذا كان هناك من يلاحق شخصاً بريئاً مؤمناً أو أشخاصاً أبرياء وطلب منّي أن أعرف عن مكانهم الذي أعرفه، هنا يأتي القول الإسلامي المعروف: «إحلف بالله كاذباً ونجّ أخاك من القتل»، ولكن لا يجوز الكذب في تزوير التاريخ، حتى لو كان على أساس المأساة هنا، ولا سيّما إذا كان كذباً يستنطق النماذج المقدّسة في كلام لم تقله»^(٦١).

(٦٠) من نصّ المقابلة التي أجرتها جريدة السفير اللبنانيّة مع المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله في ٢٧/٥/١٩٩٦، نقلاً عن موقع بينات.

(٦١) م.ن.

مع دراسة علمية لقضية الحسين عليه السلام

وقال: «إنّ علينا عندما نواجه مسألة سيرة الحسين عليه السلام، أن لا نعتمد على كلّ ما بين أيدينا، فبين أيدينا غثّ وسمين، وبين أيدينا متناقضات، لذلك لا بدّ أن ندرس قضية الحسين عليه السلام دراسة علميّة موضوعيّة، ولا أقول إنّ علينا أن نأخذ كلّ رواية بالطريقة «المعقّنة» الموجودة في رواية الأحكام الشرعية أو ما إلى ذلك، ولكن علينا أن ندرس الروايات في مضمونها من حيث طبيعة علاقتها بالواقع من حولها، حتّى نستطيع أن نركّزها على أساس وقاعدة .. أن نفهم - مثلاً - ظروف خروج الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة، هل هي ظروف تتصل بمسألة كربلاء، أو هي ظروف تتصل بمسألة البيعة؟ وهكذا علينا أن ندرس المرحلة التي أمضاها الإمام الحسين عليه السلام في مكة وكيف كانت، وهكذا - وهذه نقطة مهمّة جداً - مسيرة الإمام الحسين عليه السلام من مكة إلى كربلاء وحركته في كربلاء.. لا بدّ من دراسة علمية في هذا المجال.

الرجوع إلى المصادر الموثوقة

لا بدّ أن نقرأ أولاً، قبل أن نقرأ الكتب الأخرى، المصادر الموثوقة التي بين أيدينا، ولا سيّما من خلال ما يُقال بأن مقتل «ابن مخنف» هو المقتل الأساس الموجود في تاريخ الطبري، وأما هذا المقتل الموجود بين أيدينا فهو ليس مقتل «ابن مخنف» ونعرف ذلك من خلال المقارنة بين هذا وذاك، ونقرأ «الإرشاد» للشيخ المفيد، أو المصادر القريبة من ذلك العصر، ثم نحاول أن نقارن بينهما وبين ما أصبح يُنقل إلينا في الكتب الحديثة.

قليل الحق يكفي من كثير الباطل

لا بدّ لنا أن نختار - بعد دراسة - الأشياء التي يمكن أن ينفّث عليها الإنسان، وأن لا نبادر إلى قراءة الأشياء التي لم تثبت لمجرّد إثارة العاطفة.

فقد ورد في كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو ينقد بعض أصحابه عندما كان يحاور بعض الناس، كان يقول له: «إِنَّكَ تَمْزِجُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَقَلِيلُ الْحَقِّ يَكْفِي مِنْ كَثِيرِ الْبَاطِلِ».

ولهذا فلا بدّ لنا أن نعمل على أساس اختيار مواضيع الثّورة الحسينيّة بشكل يفتح على كلّ الواقع، من خلال الوثاقفة في المضمون ومن خلال النتائج الإيجابية التي يمكن أن ينطلق فيها في واقعنا.

المطلوب صورة حقيقية للحسين عليه السلام

إنّنا نريد أن نعطي صورة حقيقية للحسين عليه السلام .. فمثلاً كيف يمكن أن يقف الخطيب ليوافق بين موقف القوّة للإمام الحسين عليه السلام وبين موقف القوّة للسيدة زينب عليها السلام وبين كثير ممّا يُقال؟! فإنّ الإنسان يجد نفسه يعيش حالة مزدوجة أمام كلمة الإمام الحسين عليه السلام وهو يقول: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»، والكلمة التي يرويها (حميد بن مسلم) إذا صحت روايتها عنه: (وحق جدي إني لعطشان)، فكيف يوازن الإنسان بين الروح المقاومة والمتحدّية التي تواجه الواقع والتي تتكلّم عن أنّها لا يمكن أن تتنازل أمام كلّ ما يُطلب منها وبين بعض الكلمات التي توحى بالضعف.. وهكذا بالنسبة إلى مسألة السيّدّة زينب عليها السلام في مواقفها الرائعة في كربلاء وبين بعض ما يُتلى، خصوصاً من الناحية الشعبيّة»^(٦٢).

تبغات التسامح في النصوص

كما ذكرنا سابقاً فإنّه من الخطأ اعتبار أن نقل النصوص التاريخيّة الضعيفة لا أثر له من الناحية السلبية، لأنّه مجرد تاريخ مضى، لأنّ آثاره السلبية حاضرة على مستوى العقيدة والمعرفة الدينيّة والأخلاق والشريعة والمفاهيم الإسلاميّة

(٦٢) محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، ص ٢٤٠-٢٤٢.

العامة، ممّا سينعكس سلباً بالتالي على تصرّفات الإنسان وقناعاته.

وإلى هذه الحقيقة أشار المرجع السيد فضل الله (رض) بقوله: «ربّما كانت هذه الفوضى التاريخية الروائيّة، تفسح في المجال للكثيرين ممّن يتحرّكون في إنتاج العادات التي لم تنطلق من طبيعة الدّكرى، ولا من خطّ أهل البيت (عليه السلام). ولذلك، فإنّنا نرى البعض في موسم عاشوراء ينتج بعض أشكال العادات التي توحى بالتخلّف، أو بما يعبر عنه أستاذنا السيّد الخوئي (رحمه الله) بـ (هتك حرمة المذهب)، باعتبارها تسيء إلى الصّورة المشرقة التي يتمثّل فيها مذهب أهل البيت (عليه السلام) الذي هو الخطّ الإسلاميّ الأصيل.

هناك عدّة أسئلة لا بدّ من أن نثيرها: هل كانت حركة الإمام الحسين (عليه السلام) حركةً استشهاديّة؟ هل خرج ليُقتل؟ هل كانت مسيرته من أجل أن يصل إلى مرحلة يسقط فيها مع ولده وأصحابه وأهل بيته شهيداً؟ هل كانت المسألة عنده تنطلق من خلال مزاج الشّهادة؟

ربّما يقرأ خطباء العزاء بعض الأحاديث التي تُنسب إلى الإمام الحسين (عليه السلام) في أوّل انطلاقتها من مكّة، حيث يقول: «وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النّواويس وكربلاء...»، إلى آخر الحديث. كما يتحدثون أنّ الحسين (عليه السلام) أغضى إغفاءً عند قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورأى جدّه في المنام، وتوسّل الحسين (عليه السلام) إليه أن يأخذه معه لأنّه لا يطيق البقاء في هذه الدّنيا، ولكنّ النبي (صلى الله عليه وآله) - حسب الرواية - قال له: «إنّ لك درجةً لا تنالها إلا بالشّهادة فاخرج لتستشهد».

وكذلك في ما ينقله الرواة، أنّ أخاه محمّد بن الحنفية عندما تحدّث معه حول مسيرته، أجابه الإمام (عليه السلام): «شاء الله أن يراني قتيلاً»، فقال له: ما معنى حملك هؤلاء النسوة؟ فأجابه الإمام بحسب الرواية: «شاء الله أن يراهنّ سبايا».

كيف نستطيع دراسة هذه الروايات دراسةً علميةً، مقارنةً بشخصية الإمام الحسين عليه السلام؟ كإمام يشعر بمسؤولية الإمامة في تغيير الواقع في الخط الذي جاء به رسول الله ﷺ؟ فالإمامة تمثل حركية الإسلام الذي لا بد للأئمة عليه السلام من أن يحملوه رسالةً يبلغونها للناس، ويتحركون من خلالها من أجل تغيير الواقع الفاسد إلى واقع صالح. ثم، لو كان الإمام الحسين عليه السلام قد خرج استشهادياً، فلماذا خرج من مكة؟ وقد كان الأمويون يخططون لكي يقتل حتى لو كان متعلقاً بأستار الكعبة؟ هل لآته لا يريد هتك حرمة الكعبة، أو لسبب آخر؟

مسؤولية التغيير

لنقرأ حديثاً آخر يذكر الرواة أنه تحدّث به عند خروجه من مكة، ولنقارن بين تلك الأحاديث وبينه. يقول في حديث توجّه به إلى الجماهير: «أيها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغَرِّ عليه - أي لم يثر - أو «فلم يغيّر ما عليه بقول أو بفعل، كان حقاً على الله أن يَدْخِلْهُ مدخله».

فالإنسان المسؤول، ولا سيّما إذا كان في خطّ مسؤولية الإمامة أو الدّعوة إلى الله، لا يمكن أن يقف حيادياً أمام هذا الواقع - واقع نموذج السلطان الجائر - بل لا بدّ له من أن يثور عليه وأن يغيّر الواقع القائم. ويعتبر حديث رسول الله ﷺ الأساس الشرعي للثورة على الحاكم الجائر، خلافاً لما يقوله بعض الفقهاء بأنّه لا بدّ من إطاعة أولي الأمر حتى لو كانوا ظالمين، ونكتفي بنصحهم وإرشادهم.

ثم يتابع الإمام عليه السلام خطبته ليتحدّث عن الواقع، ليطابق بين خطّ النظرية

في حديث رسول الله ﷺ، وخطّ التطبيق في رسم صورة الواقع، ثم مسؤوليته عن ذلك: «ألا وإن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأحلّوا حرام الله وحرموا حلاله، واستأثروا بالفيء - بمال الأمة - وعطلوا الحدود، وأنا أحقّ من غير». حيث يتوجّه بخطابه هذا إلى الجماهير، ليقول لهم إنه يتحرّك من أجل أن يغيّر هذا السلطان ويغيّر هذا الواقع الفاسد الذي استسلم لهذا السلطان.

إذاً، نستوحي من هذا الخطاب، أنّ الإمام الحسين عليه السلام انطلق في حركة تغييرية، أي أنّه كان تغييرياً، ولم ينطلق من أجل أن يسقط شهيداً، وإن كان مستعداً للشهادة فيما لو فرضت عليه في نهاية المطاف، من خلال انطلاقه في خطّ التغيير.

فالإمام الحسين عليه السلام يشير إلى أنّ الواقع ليس إسلامياً، وأنّه سيعمل كي يجعله إسلامياً، لأنّ الإسلام أمانة الله عنده. وهكذا نقرأ مثلاً في نقده للحكم في تلك المرحلة قوله: «اتخذوا مال الله دُولاً»، يعني أنّ مال الأمة يتداولونه فيما بينهم تبعاً لأطماعهم ومصالحهم، «وعبادته خولاً»، أي اتخذوا عباد الله عبيداً. وهذا ما تمثّل في السنة الثانية من حكم يزيد، عندما أراد من واليه أن يفرض بيعته على أهل المدينة ليكونوا عبيداً له. ثم نقرأ بعد ذلك كلمته المشهورة: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ أصبر حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين».

فالإمام عليه السلام يتحدّث عن حركته ليؤكد أنّها حركة إصلاحية في الأمة، باعتبار أنّه يحمل مسؤولية الأمة، لأنّ الإمامة تمثّل حركة الإمام في تحمّل مسؤولية الأمة، من خلال تقويم ما انحرف، وإصلاح ما فسد فيها.

تحديد الهدف

ثم إنَّ هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يخرج مقاتلاً، حيث يقول: «فمن ردَّ عليَّ أصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»، فهو قد انطلق، كما انطلق رسول الله ﷺ قبل الهجرة بشكل سلمي، لينفتح على الناس بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة والأسلوب اللين: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنِتَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا ما دعا الإمام عليه السلام إلى أن يستقبل الكتب التي وصلتته من الكوفة، ويُقال إنَّها بلغت ثمانية عشر ألف كتاب (أن أقدم إلينا)، وإلى أن يرسل إلى أهل البصرة كتابه الذي يؤكد فيه أننا أحقُّ بهذا الأمر ممَّن قام به قبلنا.

إذاً، فالإمام الحسين عليه السلام لم يتحرَّك على أساس أنَّه يستهدف القتل أو الشهادة، لذا علينا أن نعيد النظر في كثير من الروايات التي تتحدَّث عن أنَّه خرج من أجل الشهادة. والصَّحيح أنَّ الإمام عليه السلام انطلق مغيراً ومصلحاً، وإذا أردنا أن نتحدَّث بمصطلحات هذا الزَّمن، يمكن أن نقول إنه خرج ثائراً بما للثَّورة من معنى في تغيير الواقع من جذوره وتحويله إلى واقع صالح، وهذا ما ينبغي لنا أن ننطلق به.

الذهنيَّة البكائيَّة

والمشكلة بالنسبة إلينا، بل السَّبب الَّذي منع دراسة النصوص التَّاريخيَّة الواردة في أحداث نهضة الإمام الحسين عليه السلام، هو التَّقاليد والعادات والذهنيَّة البكائيَّة الموجودة عندنا، والتي تتفاعل مع المأساة أكثر مما تتفاعل مع القضيَّة والرَّسالة، فهذه الذهنيَّة أدمنت كربلاء المأساة، فدخل الوضَّاعون في هذا الاتِّجاه، ودخل الشَّعراء في هذا الاتِّجاه، ونحن نسمع أغلب القراء يقرأون:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني
فهذا البيت لشاعر من كربلاء، وفي قصيدته جانب وجداني، لكنه أصبح متعارفاً
لدى الناس أنه من أقوال الإمام الحسين (عليه السلام).

كيف يكون قتل الإمام الحسين (عليه السلام) هو الذي يقيم دين النبي (ﷺ)، فيما
نحن نعرف أن قتله بهذه الطريقة يُسيء إلى الخط الذي كان الإمام (عليه السلام)
يتحمّل السير عليه من أجل إصلاح الأمة ومن أجل تغيير الواقع، فكيف له أن
يقول (يا سيوف خذيني؟).

كما أننا قد نسمع أو نقرأ فيما ترويه كتب السيرة، الكثير من الأحاديث التي
تُظهر الإمام الحسين (عليه السلام) بمظهر الضعف. صحيح أن الإمام الحسين (عليه السلام)
إنسان يعيش العاطفة تجاه أولاده وأهل بيته وأصحابه، ولكن ليس بالصورة التي
يبدو فيها إنساناً جازعاً متهاكاً.

لا بدّ من أنكم سمعتم في الليلة التي تُتلى فيها سيرة عليّ الأكبر والقاسم
بن الحسن، كيف أن الحسين (عليه السلام) بعد استشهادهما، استلقى بينهما، ساعة
يخاطب عليّ الأكبر ويبيكي، وساعة يخاطب القاسم ويبيكي، بطريقة توحى
أن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يستطع أن يتمالك نفسه أمام هذه الفاجعة
المأساة. صحيح أنه من الممكن أن يبكي، لأنّ البكاء عاطفة إنسانية، ولكن
ليس بالطريقة التي تُروى، بحيث إنّ النساء كنّ يتألّمن له، فذلك إنما يدلّ على
ضعف في الإمام (عليه السلام) لا يمكن قبوله، مع أن السيرة تروي له موقفاً عندما كان
يصلح سيفه ويقول: (يا دهر أف لك من خليل)، إلى آخر الآيات المعروفة،
بحيث شعرت أخته السيّدة زينب (عليها السلام) بأنّه ينعى نفسه، بعد أن رأى ما رأى
من عزم القوم على قتاله، ما أثار مشاعر السيّدة زينب (عليها السلام) التي عاشت كلّ
المأساة في تلك اللحظة، وعبرت عنها بطريقة بكائيّة عاطفيّة، ولكن الإمام

الحسين طلب منها أن تتماسك، وأن لا تلطم بعد شهادته عليه خدّاً، وأن لا تدعو بالويل والثبور ولا تُشمت به الأعداء. فقد كان عليه السلام في أقصى حالات التماسك حتى عندما كان يذهب إلى الشهداء في ساحة المعركة، وحتى إنّنا عندما ندرس قوّته وصلابته وهو يقاتل، بعد أن بقي وحيداً، نراه في أعلى درجات العنفوان والعزّة والكرامة.

شجاعة الحسين عليه السلام

ويتحدّث أحد الرواة عن حالته في ذلك الموقف الذي برز فيه إلى الأعداء، فيقول: «فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ - أي مصاباً - قد قُتل ولُدّه وأهل بيته وأصحابه، أربط جاشاً ولا أمضى جناحاً ولا أجراً مقدماً منه. والله ما رأيت قبله ولا بعده، ولقد كانت الرّجال تشدّ عليه فيشدّ عليها بسيفه، فتتكشف عن يمينه وعن شماله انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الدّثب». ثم يتابع الراوي: «ولقد كان يحمل فيهم وقد تكاملوا ثلاثين ألفاً، فينهزمون بين يديه كأنهم الجراد المنتشر، ثم يرجع إلى مركزه وهو يقول: «لا حول ولا قوّة إلا بالله».

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام كأبيه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في شجاعته وصلابته وقوّته، ولذلك ناداهم ابن سعد - حسب الرواية - قائلاً: «أتدرون من تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطّين، هذا ابن قتال العرب».

هذا الإنسان الذي يعيش العنفوان في هذه السّاعات الصّعبة التي مرّت عليه، كيف يمكن أن يكون ضعيفاً أو يوحى لأعدائه بالضعف، أو حتى يوحى لأهل بيته ونسائه بالضعف؟!

لقد كان الإمام عليه السلام صاحب قضية وصاحب رسالة. كان يريد أن يغيّر العالم الإسلامي على خطّ الإسلام، وكان يريد أن يصلح ما فسد من أمور المؤمنين، وكان يريد أن يتابع كلّ المعروف ليأمر به، وكلّ المنكر لينهى عنه، حتى إنّ كان

يقف أمام معسكر الأعداء لينصحبهم ويحاورهم ويرشدهم؛ لذلك لا بدّ من أن نصحّ الصّورة في هذا المجال.

النموذج الزينبيّ

وزينب عليها السلام، الموصوفة ببطلّة كربلاء، هذه الإنسانة القويّة التي تقول لابن زياد: «ثكلتك أمك يا ابن مرجانة»، وتواجه يزيد بكلّ قوّة قائلة: «فكّد كيدك، واسعّ سعيك، وناصب جهدك، فإنّك لن تمحو ذكرنا، ولن تميم وحيناً؛ هذه الإنسانة القويّة الصّلبة التي يمكن أن نقدّمها إلى العالم كنموذج للمرأة المسلمة القوية المجاهدة البطلّة والقائدة، يتمّ تصويرها كبدويّة تبكي على أهلها وتناديهم، مع أنّه عندما ندرس زينب عليها السلام، نجد أنها كانت أخت الحسين عليه السلام جهاداً ورسالةً، وكانت تفهم معنى الحسين عليه السلام ورسالته. لكنّنا أسقطنا كلّ هذا العنفوان الزينبيّ بالأشعار التي يقرأها النّاس حتى يبكوا، حتّى أصبحت زينب مادّة للبكاء لا مادّة للقوّة»^(٦٢).

وأضاف سماحته في مناسبة أخرى: «أنا أخشى أنّنا نزرع في مجتمعاتنا الشخصية البكائية التي تبكي في الهزيمة، وتبكي في المأساة، وحتّى أنّنا جعلنا للسرور بكاءً، وأصبحنا لا نطيق البسمات والفرح، بل نبكي من الفرح، لأنّ الشخصية البكائية قد تبكي في حالات الفرح كمن تخاف على الفرح أن يموت.

أيّها الأحبة، إنّنا نبذل جهداً كبيراً في عاشوراء، ولكنني أتساءل ما هي امتدادات عاشوراء في العالم، التي أريد لها أن تكون المأساة التي تهزّ الضمير الإنساني؟! إنّها لا تزال في الدائرة الشيعيّة الخاصّة، حتّى إنّها لم تنفذ بقوّة

(٦٢) محمد حسين فضل الله: مقال بعنوان عاشوراء تأملات في السيرة والروايات، نقلاً عن موقع مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر.

في الدائرة الشيعية المثقفة المعاصرة إلا قليلاً، قد يحدثك بعض الناس أنّ الأديب الفلاني في الغرب قال كذا، وأنّ الفيلسوف الفلاني قال كذا، ولكن كم هي الكلمات التي لا نستهلكها حتى نحن.

إنّ العالم يعيش الآن بالكذب مأساة المحرقة التي انطلق بها النازي بالنسبة لليهود، ونحن نعرف أنّ اليهود تعرّضوا لهذه المحرقة كما تعرّض لها كثير من الشعوب، ولكن اليهود عملوا بما عندهم من إمكانيات حتّى يُقنعوا العالم على أساس (إكذب.. إكذب حتى يصدّقك الناس، إكذب.. إكذب حتّى تصدّق نفسك)، وأصبحت المحرقة تمثّل هذه المأساة الإنسانية، وانطلقت القصص والروايات والأفلام لتنفيذ إلى كلّ جيل حتّى جيل الأطفال ليشبّ عليها الصغار ويهرم عليها الكبار. ونحن لم نستطع أن نحرك عاشوراء في الضمير الإنساني في أبعادها الإنسانية والثورية والفكرية في واقعنا، لم نستطع ذلك، أتعرفون كيف تقدّم عاشوراء إلى العالم؟ أنظروا إلى فضائيات العالم غداً، وبعضنا لا يزال من مراجع وعلماء، يُنظر لهذه العادات المتخلّفة، ماذا تنقل الفضائيات العالمية؟ هل تنقل الكلمات الهادفة والمثقفة التي تنطلق من بعض المثقفين والهادفين، هل تنقل هذا النبض الإنساني العاطفي الذي يعيش في نفوس الناس؟ إنّها تنقل كيف ضرب رؤوسنا بالسيوف، وتنقل كيف نجلد ظهورنا بالسلاسل، وتنقل كلمات مفادها أنّنا لو استغنيا عنها لماتت قضية الحسين (عليه السلام)، كأنّ قضية الحسين (عليه السلام) قضية هامشية لا يصنعها إلا المتخلّفون، إنّ الذي يصنع قضية الحسين (عليه السلام) ليست هذه الدماء التي نستزفها من رؤوسنا، بل الدماء التي نستزفها من دماء الأعداء»^(٦٤).

(٦٤) من محاضرة ألقاها المرجع السيد محمد حسين فضل الله في قاعة الجنان في بيروت في السابع من محرم ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٣ آذار ٢٠٠٢م، نقلا عن موقع بينات.

متى قاتل الحسين عليه السلام؟

وتوضيحاً للخلل في فهم دوافع الحركة الحسينية، وما يترتب على ذلك من انعكاس على حركتنا في الواقع قال (قدس سره): «وفي ضوء ما ذكرناه، يفرض السؤال التالي نفسه: متى قرّر الإمام عليه السلام أن يدخل المعركة؟ لقد اتخذ هذا القرار عندما فُرض عليه أن يعطي الشرعية لبني أمية، حيث طلب ابن زياد من الإمام عليه السلام أن ينزل على حكمه وحكم يزيد. عند ذلك رأى الإمام عليه السلام أنّ المسألة وصلت إلى مستوى الخطر بأن يعطي الشرعية لمن لا شرعية له، بل لمن هو ضدّ الشرعية، لذا قال كلمته المشهورة: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الدليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد.. ألا إنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السّلة والدّلة، وهيهات منا الدّلة! يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت، وجدود طهرت، ونفوس أبيّة، وأنوف حميّة، من أن تُؤثر طاعة اللّئام على مصارع الكرام». عند ذلك، دخل الإمام الحسين عليه السلام مقاتلاً واستعدّ لخوض المعركة...

التزام شعار الإصلاح

وهكذا أيّها الأحبّة، لا بدّ لنا أيضاً من أن نلتزم شعار الإمام الحسين عليه السلام، وهو الإصلاح في أمة جدّه رسول الله ﷺ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحاول أن نخطّط بوعي، من أجل دراسة مفاصل الفساد السياسي والأمني والاقتصادي والثقافي في مجتمعاتنا.

وهذا يفرض علينا أن نعمل على أساس إبعاد كلّ هؤلاء الذي يشوّهون صورة كربلاء والإمام الحسين عليه السلام، لأنّ المشكلة التي نعيشها تمثّل شراكة بين من يعتلون المنبر وبين النّاس، فالكثيرون من معتلي المنابر هم أميون لا يفهمون ما يقرأون، بمعنى أنّهم أميون ثقافياً وإن كانوا يقرأون ويكتبون. هؤلاء هم الذين

يأتون إلينا بالخرافات المأساوية حتى يجتذبوا الدّموع.

ونحن نلاحظ عند إحياء مجالس عاشوراء، أنّ البحث يتم عادةً عن القارئ الذي يملك صوتاً مطرباً يطرب الحاضرين، وربما يكون للطرب في بعض الحالات طابع مأساوي. لكن في المقابل، يتم تجاهل وجود الكثير من المثقفين الذين يملكون الثقافة التاريخية التي يدرسون من خلالها أحداث التاريخ بطريقة علمية، كما أنّ هناك الكثير ممن يملكون ثقافة أدبية، بحيث يدرسون كثيراً من الأشعار التي يوردها قراء العزاء. ومن الملاحظ أنّ الكثير من أبيات الشعر بات يعتبرها الناس أقوالاً مقدّسة، مع أنّ كل شاعر ينظم بحسب ذهنيته وفهمه.

وعلى سبيل المثال، فإنّ بعض الشعراء ينظم في أبي الفضل العباس (عليه السلام) قائلاً: «لولا القضا لمحا الوجود بسيفه»... فهل يُعقل هذا؟ ويقول آخر: إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني بحيث يبدو الإمام الحسين (عليه السلام) وكأنّه يطلب من السيوف أن تأخذ حياته حتى يستقيم دين النبي (ﷺ)، فكأنّ دين النبي (ﷺ) لا يستقيم إن بقي الحسين (عليه السلام) حياً وإماماً مبشّراً ومصلحاً ومغيّراً! لكن هذه الأقوال أصبحت مما يتداوله الناس، ونجد مثلاً الكثير من الشعر الذي يُلقى في المجالس، سواء بالفصحى أو باللهجة الشّعبية»^(٦٥).

المفاهيم القلقة الدخيلة

وعالج سماحته عناوين أخرى من المفاهيم الخاطئة والقلقة التي دخلت على خطّ استعراض السيرة الحسينية بكلّ انعكاساتها السلبية على المستويات

(٦٥) من محاضرة ألقاها المرجع السيد محمد حسين فضل الله، في المجلس العاشورائي الذي أقامته جمعية التعليم الديني الإسلامي في شهر محرّم الحرام سنة ١٤٢٠ هجرية، نقلاً عن موقع بينات.

المختلفة، قال: «يجدر التوقّف في هذا السياق عند المفاهيم الخلقة الدّخيلة على طريقة إثارة المأساة، ممّا قد يتنافى مع المفهوم الإسلاميّ الأصيل، أو يبتعد عن خطّ التّوازن في دائرة التّصوّر، أو يحصر الذّكرى في دائرة معيّنة تنطلق بها في العصبيّات العائليّة، بعيداً عن المشاعر والأفكار الرّساليّة، وغير ذلك ممّا قد ينعكس سلباً على الدّهنيّة الشّعبيّة العامّة الّتي قد تخزن هذه المفاهيم الّتي تنفذ إلى منطقة الشّعور من خلال الدّموع والآلام، الأمر الّذي قد يعمّق المضمون الفكريّ والشّعوريّ في كلّ مواقع الإثارة في الذات.

وعند تقديم بعض النّماذج من هذه المفاهيم الّتي يقدّمها الخطباء للجمهور، نلتقي - في البداية - بالسيد حيدر الحلّي، الشّاعر الكبير، في قصيدته الحسينيّة الّتي يستنهض فيها صاحب الزّمان عجل الله تعالى فرجه، فيقول: «واستأصلي حتّى الرّضيع لآل حرب والرّضيعة».

فنحن نجد أماناً دعوة صارخة مثيرة لاستئصال بني أميّة، حتّى الرّضيع منهم من الذّكور والإناث، لنصطدم بهذا المفهوم الّذي لا يتناسب مع القيمة الإسلاميّة الإنسانيّة في خطّ العدالة الّتي جاء بها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

كما لا يتناسب مع السّيرة الحسينيّة فيما تنقله أحاديثها من اللّفة الإنسانيّة لبعض الجنود في جيش بني أميّة، عندما قدّم الحسين عليه السلام ولده عبد الله الرّضيع إلى القوم ليسقوه جرعة من الماء، فقد قال بعضهم وهو يتفاعل مع مأساة هذا الطّفل العطشان، ليؤكد الاستجابة لطلب الإمام الحسين عليه السلام في ذلك: «إن كان ذنب للكبار، فما ذنب هذا الطّفل الرّضيع؟!».

فكيف يمكن أن يستمع الجمهور المسلم إلى مثل هذا النّداء العدوانيّ الصّارخ نحو الأطفال الّذين لا ذنب لهم، ولا سيّما إذا كانوا من الرّضّع، ما يزيد الإحساس

الإنساني شعوراً بالألم، في الوقت الذي تتحرك كل ذكرى عاشوراء من أجل إثارة المشاعر الإنسانية المضادة لكل الواقع الذي صنع مأساة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، حتى يتبلور الرّفص الإسلاميّ لأمثال هذا الواقع، فيقف في مواجهة كل الذين يريدون أن يصنعوا مأساة الإنسان في الحاضر والمستقبل، كما صنع أمثالهم المأساة في الماضي.

ونلتقي بنموذج آخر في قول الشاعر حاكياً عن لسان أهل البيت عليه السلام:

سادة نحن والأنام عبيدُ لنا طارف العلى والتّليد
وأبونا محمّد سيّد النَّاس وأجدر بؤلده أن يسودوا

إنّ هذا المفهوم يتنافى والذهنيّة الإسلاميّة التي ترفض عبوديّة إنسان لإنسان، في عمق الخطّ الإسلاميّ، كما ترفض نظرة أيّ شخص لنفسه بهذا المقياس، وقد درج الأنبياء والأولياء على الابتعاد عن هذا الأسلوب في حديثهم عن النَّاس، كما درج القرآن على الحديث عنهم بغير هذه الطّريقة؛ فلم نلاحظ في كلِّ التّراث الدّينيّ بشكل عام، والإسلاميّ بشكل خاصّ، مثل هذا التّعالي على النَّاس، بحيث تكون النّظرة إلى النَّاس أنّهم العبيد، وهم السّادة.. في الوقت الذي نعرف، من خلال الحقيقة الدّينيّة، أنّ الأنبياء والأولياء هم الفئة المميّزة في الدّرجات العليا عند الله، بحيث يرتفعون عن النَّاس في قربهم إلى الله، كما نعرف أنّ طاعتهم واجبة على الخلق من موقع رسالة الله التي يحملونها ليلبّغوها للنّاس، ومن موقع الشّريعة التي أوكل الله إليهم أن يجسّدوها في الحياة.. ولكنّ الطّاعة شيء والعبوديّة شيء آخر، لأنّها - أي الطّاعة - تلتقي بالمسؤوليّة لا بالتّقويم الإنسانيّ.

وإذا كان الأسلوب الأدبيّ يبرّر للإنسان أن يتواضع لإنسان آخر رفيع القدر، ليقول له: إنّني عبدك، فيعترف له بذلك، تنزيراً لنفسه بمنزلة المملوك

تواضعاً، فإنَّ التَّربية الإسلاميَّة لا تتناسب مع كلام الشَّخص الكبير عن نفسه بهذه الطَّريقة. ولذلك، فإنَّ تصوير أهل البيت عليهم السلام للنَّاس بأنَّهم يتحدثون عن أنفسهم وعن النَّاس بهذا الأسلوب، لا ينسجم مع النظرة الرُّوحية العالِية لروحانيَّاتهم الرِّفِعة في التَّواضع لله في علاقتهم بالنَّاس.

ونلتقي بنماذج أخرى من الشَّعر الحسينيِّ، يتركز فيها الحديث على إعطاء صورةٍ للصِّراع وكأنَّه يدور في نطاق الدَّائرة العائليَّة، تماماً كما لو كانت المسألة مسألة نزاع عائليٍّ بين بني هاشم وبني أميَّة، على الطَّريقة التي أثارها أبو العلاء المعريُّ في قوله:

عبد شمسٍ قد أضمرت لبني هاشم حرباً يشيب فيها الوليدُ
فابن حربٍ للمصطفى وابن هندٍ لعليٍّ وللحسين يزيدُ

وهذا هو ما نلتقيه في بعض قصائد السيّد حيدر الحلّي، كما في قوله:

قوّضي يا خيام علياً نزار فلقد قوّض العماد الرّفيع
واملئي العين يا أميَّة نوماً فحسينٌ على الصّعيد صريع
وقوله:

بشرى بني فهرٍ فأبناؤكم ماتوا وهم أعلى الورى أعينا
باعوا نفوساً لهم قد غلت وأرخصوا من سعرها المثمنا

وهكذا نجد الكثير من هذه النماذج في الشَّعر الذي لا يزال يُتلى في مجالس العزاء، ما أدّى إلى تكوين ذهنيَّة شعبيَّة تستغرق في مشاعر العصبية للعائلة الهاشميَّة ضدَّ العائلة الأمويَّة، بعيداً عمّا هي المسألة الإسلاميَّة، حتّى إنَّ البعض يتصوّر الدِّين كخصوصيَّة من خصوصيَّات العائلة، لا كحالةٍ رساليَّةٍ تنفتح على

الوعي الإسلامي لدى الإنسان المسلم، وتلتقي برموز الإسلام وقياداته في ساحاتها، ليكون الارتباط من خلال الإسلام لا من خلال الخصوصية العائلية.

ولعل مثل هذا التأثير العاطفي الذي يتحوّل إلى تعصّب للعائلة، قد ترك آثاره على حركة الوعي الشعبيّ السياسيّ في بعض المراحل السياسيّة القلقة من حياة الأمة، فقد لاحظنا أنّ الملوك الهاشميين من أبناء الشريف حسين، قد حصلوا على كثير من الدعم العاطفيّ لدى بعض علماء الدين والفئات الشعبيّة الطيّبة، انطلاقاً من انتسابهم إلى العائلة الهاشميّة، من دون أيّ تدقيق في التزامهم الإسلاميّ، وفي لونهم المذهبيّ في السّاحات التي ترى للمذهبيّة معنى كبيراً في التّقويم الفكريّ والعاطفيّ، فقد حصل الملك فيصل الأوّل على الحماس الشيعيّ الذي تصدره علماء الدين في جبل عامل في لبنان، عندما أعلن ملكاً على سورية، كما حصل على تأييد مماثل أو أكثر منه، لدى بعض علماء الدين الشيعة والجماهير الشيعيّة في العراق، واستطاع الجانب العاطفيّ المنفتح على الهاشميين أن يمهد لهم الكثير من مواقعهم في الحكم، وأن يُبعد الجماهير عن التدقيق في خلفيّاتهم السياسيّة المرتبطة بالاستعمار البريطانيّ الذي أرادهم حراساً لمصالحه، وواجهةً لحكمه، وجسراً لمخططاته.

وهكذا رأينا مثل هذا الشعور المرتبط بالعائلة لا بالرسالة بشكل لا شعوريّ، قد ساهم في إرباك الواقع السياسيّ، حتّى على مستوى حقوق المسلمين الشيعة في العراق، لأنّهم - أي العائلة الهاشميّة - جاؤوا لينفذوا المخططات البريطانيّة في تعميق الهوة بين أفراد الشعب العراقيّ، عندما عملت على إيجاد مشكلة الأكثرية المضطّهدة من قبل الأقلية، ليبقى التّعقيد المدمر في ساحات العراق كعنصر من عناصر إرباك الواقع كلّ هناك.

ونحن عندما نشير هذه المسألة، لا نريد أن نجعل القضية الرّساليّة شيئاً يتحرّك

في المطلق بعيداً عن الرّمز، لأنّ للشّخصيّات القياديّة خصوصيّة في عمق حركة الرّسالة، فلا بدّ من الارتباط العضويّ بالقيادة فيما يمثّله الارتباط بالرّسالة، لتكون العلاقة رساليّة لا شخصيّة، وبذلك لا يبقى هناك دور للعائلة بعنوانها الكبير.. ومن هنا، فإنّ علاقتنا بأهل البيت (عليه السلام) لا تنطلق من هاشميّتهم، بل تنطلق من رسالتهم، كما أنّ الهاشميّة لا تكتسب قداسةً من خلال انتماء رموز القداسة الرّساليّة إليها.

الخيال في إطار القضية

إنّ التّراث الأدبيّ من الشّعور والنّثر قد يحتاج إلى بعض الخيال، وبعض اللّفتات الفنيّة في حركة العاطفة في المأساة، وفي تأثير المأساة في الوعي الدّاخلي للإنسان المسلم، ولكن الخيال لا بدّ من أن ينطلق في أجواء المضمون الدّاتيّ للقضيّة، فلا يخلق لها أبعاداً بعيدة عنها، ولا ينتج لها فكراً يختلف عن فكرها، كما أنّ الجانب الفنّي في لفاته الإيحائيّة والإيمانيّة والتّعبيريّة، لا بدّ من أن يعطي الفكرة بعضاً من معنى الجمال الحقيقيّ الذي تختزنه مفرداتها، فلا يفرض عليها جمالاً من خارج معناها، أو يمنحها خصوصيّة بعيدة عن خصوصيّاتها.

ولذلك، فإنّنا ندعو إلى نتاج أدبيّ حسينيّ يتغذّى من المفردات الإسلاميّة للحركة الحسينيّة، فيما هو البعد الروحيّ والفكريّ والحركيّ للإمام الحسين (عليه السلام)، لتكون الذّكرى في خدمة القضيّة، من خلال الإحياء المستمرّ بامتدادها في خطّ الزّمن، لتكون الصّورة البارزة، هي أنّ عاشوراء هي المنطلق، وليست النّهاية، وبذلك، فإنّها تريد أن تُنتج جمهوراً جديداً لمفاهيمها في كلّ زمانٍ ومكان، من خلال تأكيد العناصر الحيّة فيها، في وعي المستقبل الذي يطلّ على الإنسان في عمليّة تجددٍ ونموٍّ واستمرار.

وقد نلتقي في نماذج الشعر الحسيني المأساوي، وفي بعض مفردات السيرة الكربلائية، بالصورة التي يتمثل فيها الإمام الحسين عليه السلام شخصاً ضعيفاً خائفاً يطلب المأوى ولا مأوى، تماماً كما هو الإنسان الهائم على وجهه، الهارب من أعدائه، كما نجد ملامح هذه الصورة في قصيدة السيد جعفر الحلي التي جاء فيها:

خرج الحسين من المدينة خائفاً كخروج موسى خائفاً يتكتم
وقد انجلى عن مكة وهو ابنها وبه تشرّفت الحطيم وزمزم
لم يدرك أين يُريح بدن ركابه فكأنما المأوى عليه محرّم

وهكذا نلاحظ في هذه الصورة الشعرية، أنّ الحسين عليه السلام كان هارباً من بني أمية، خائفاً من أن يقتلوه، تماماً كما هو النبي موسى عليه السلام الذي ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] لأنه كان يخاف من أن يغتاله فرعون وقومه، كما نلاحظ أنّه كان هائماً على وجهه لا يعرف إلى أين يسير، لأنه لا يجد أيّ موقع للأمن في مقصده، مع العلم أنّه خرج من مكة قاصداً الكوفة من أجل الثورة.

ومن خلال ذلك، فإننا لا نجد في صورته صورة الثائر الذي يتحرّك ليواجه السلطة الجائرة المنحرفة، من أجل تغيير الواقع الفاسد في الحكم وفي السلوك والحركة، على النحو الذي جاء في خطبته التي استقبل بها حركته، فيما جعله عنوان الشرعية للحركة من خلال كلام رسول الله ﷺ .. وإذا كان الشاعر يريد استتارة العاطفة في شعره، فإنّه يسيء إلى الموقف الإسلامي القوي في شخصية الإمام الحسين عليه السلام في طريقة إثارة المأساة.

وهناك عدّة صور شعرية ونثرية تقدّم لنا صورة الإمام الحسين عليه السلام وهو يستغيث فلا يُغاث، ويستجير فلا يُجار، ويستسقي القوم جرعة من الماء

فلا يستجيب له أحد منهم، حتّى تنتهي القصّة إلى اللحظات التي كان الإمام الحسين عليه السلام في حالة الاحتضار، فشاهده شخص من جيش بني سعد اسمه حميد بن مسلم، فيلفت نظره أنّه يحرك شفّتيه، فيقول الرّجل في نفسه: «لو كان الحسين عليه السلام يدعو علينا هلكنّا وربّ الكعبة». فيدنو منه، فيسمعه يقول: «يا قوم اسقوني جرعة من الماء، فقد تفتّت كبدي من الظّمأ». ويضيف بعض الرّواة إلى ذلك قوله: «وحقّ جدّي إنّني لعطشان».

إنّها صورة من الصّور التي توحى بالضعف ولا توحى بالقوّة، مما لا يتناسب مع الصّورة التي يتمثّل فيها الإمام الحسين عليه السلام إنساناً كبيراً متمرداً على كلّ نوازع الضّعف وعناصر الألم في مواجهة القوى الضّالة الطّاغية التي حشدت ضده كلّ تلك الجموع لتسقط موقفه، ولتهزّ ثباته، ولتدفعه بعيداً عن موقعه الصّلب المميّز، ولتفرض عليه الخضوع لحكم يزيد، فرفض التّراجع والتّنازل والخضوع، وتحمل كلّ النتائج القاسية، من أجل أن يجسّد القيم الإنسانيّة الكبرى التي أرادها الله للإنسان في الحياة، لأنّ المسألة ليست مسألته الشخصيّة، بل هي مسألة الرّسالة في تحدّياتها الكبيرة، وفي حاجتها إلى التماسك والتّوازن في المواقع الصّعبة التي تزدحم في أعماقها الزّلازل، وهذا ما عبّر عنه بقوله - فيما روي عنه - : «ألا وإنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد ركز بين اثنتين؛ بين السّلة والدّلة، وهيهات منّا الدّلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وجدود طهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن نوثر طاعة اللّئام على مصارع الكرام»، وفي قول آخر: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الدّليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد».

إنّ مثل هذه الكلمات، لا تلتقي مع الأسلوب الاستعطاقيّ الذي تتحدّث عنه الرّواية المذكورة، لأنّها تمثّل التّصميم القويّ على أن يتحمّل أفسى النتائج في سبيل موقفه على خطّ العزّة ووحى الرّسالة.

إننا لا ننكر أن الإنسان، حتى لو كان نبياً أو إماماً، قد يخضع للضعف البشري في مضمون بشريته، ولكن الحسين عليه السلام قد اتخذ قراره في المواجهة الصعبة، بعد دراسة طويلة عميقة لكل النتائج المترتبة عليه، وعرف طبيعة الوحشية الهمجية المتمثلة في عناصر الشخصية الطاغية لهؤلاء، ورأى في ساحة المعركة، كيف تتجسد القسوة في مواقفهم، حتى بالنسبة إلى الطفل الرضيع، فكيف يمكن له أن يستغيث بهم، ويطلب منهم جرعة من الماء، في الوقت الذي كان جسده متخناً بالجراح بأبشع الصور! وكيف يمكن أن تصدر عنه تلك الكلمات التي تدعو إلى الشّماتة به، والنظرة إليه في موقع الانهيار، وهو القائل لأخته زينب عليها السلام - بعد أن عبرت أمامه عن قلقها على المصير الذي أخبرها أنه سيصير إليه - «لا تشمتي بنا الأعداء»!؟

إن الصورة الحقيقية للإمام الحسين عليه السلام، هي تلك الصورة التي عبر عنها أحد أعدائه من جيش يزيد: «فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ قد قُتل ولده وأهل بيته، أربط جأشاً، ولا أشدّ بأساً من الحسين، فلقد كانت الرّجالة تشدّ عليه، فيشدّ عليها، فتكشف من بين يديه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذّئب».

وهكذا نجد صورة السيّدة زينب عليها السلام في الشعر الحسيني، ولا سيّما الشعر الشعبي، فلا نجد فيها صورة البطلة القويّة المتحدّية التي وقفت في قوّة وصلابة وثبات في مجلس ابن زياد لتتحدّى سلطانه، وفي مجتمع أهل الكوفة لتواجه انحرافهم وخذلانهم، وفي مجلس يزيد لتهاجم مواقفه، بل نجد صورة الإنسان البدويّة التي تتحدّث بالأسلوب الضّعيف الواهن الثّاكل الذي يبحث عن العشيرة فلا يجدها، وعن النّصير فلا يلتقي به، ويواجه القضية بلسان الدّعوة إلى الثّأر على الطّريقة العشائريّة: إنّها صورة الإنسان الضّعيفة المنكوبة المسيّبة التي تعيش همّ آلامها وهمّ الأطفال والنّسوة من حولها، من دون أن تكون للقضيّة الكبرى أيّة انطلاقة في اهتماماتها.

وقد يخيّل إلى بعض النّاس، أنّ الحديث عن المأساة في خطّ القضية يمثّل لوناً من ألوان التّعبيّة النّفسيّة ضدّ الذين صنعوا المأساة، أو الذين يصنعون ما يماثلها، ممّا يحقّق للقضية الكثير من عوامل القوّة في وعي الجماهير، عندما تنفتح مشاعرهم على الثّورة من خلالها.

ولكنّنا نلاحظ على ذلك، أنّ ذلك يفرض نوعاً من التّوازن بين حركة العاطفة وصورة النّمودج الأعلى للقضية، فيما تتكامل فيه عناصر الثّورة في خدمة القضية؛ ولذلك فإنّنا لا نرفض إثارة العاطفة فيما هي العناصر الحقيقيّة للمأساة، بل نرفض بعض المضمون الذي يبتعد بالمأساة عن جوّ القضية في مواقع القوّة والعنفوان، كما نرفض الأسلوب الذي لا يتناسب فيه الإيحاء بين الجوّ والفكرة.

وفي ضوء ذلك، فإنّنا ندعو إلى إنتاج أدبٍ حسينيّ جديد، يتحرّك من خلال القضية الحسينيّة في أهدافها الكبيرة، ويلاحق أحداثها من خلال النّقد الواعي الذي يأخذ في حسابه كلّ الظروف المحيطة بها، من شخصيّة البطل، ونوعيّة الأنصار، وطبيعة العدو، وصورة المرحلة، ليجتذب ذلك كلّ إلى الواقع الذي تعيشه الأمّة، في عمليّة إحياء بالثّورة، وحركة للتّغيير على أساس الإسلام، لنستطيع أن نحرك الذّكرى في امتداد الزّمان، لتكون خيراً وبركةً للحاضر والمستقبل، كما كانت بركةً للماضي، من دون فرق بين الأدب الشّعبيّ وغيره»^(٦٦).

تجديد الشعر الحسيني

ويكمل سماحته الفكرة قائلاً: «وفي مسألة الشعر لا بدّ لنا أن نختار الشعر الذي يمثّل واقع القضية وقيمتها. وكنت كتبت في بعض الدراسات أنّنا عندما نتحدّث عن الحسين (عليه السلام) وهو يقدّم ولده عبد الله الرضيع والجماعة يقولون:

(٦٦) محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، ص ٢٥-٢٢.

«إن كان ذنب للكبار، فما ذنب هذا الطفل الرضيع»، ثم نقرأ في قصيدة لأحد الشعراء: «واستأصلي حتى الرضيع لآل حرب والرضيعة». فهو وإن كان يريد المعنى الكنائسي من قبيل الآية القرآنية: ﴿لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، إلا أنَّ طريقة التعبير توحى بأننا ندعو إلى قتل الرُّضْع من الذكور ومن الإناث، وهذا منطق لا يعبر عن إنسانية الإسلام، وإنسانية المواقف في هذا المجال.

كما نلاحظ أنَّ كثيراً من الشعر الحسيني يتحدث عن مسألة الحسين عليه السلام ومواجهته يزيد، تماماً كما لو كانت مسألة بني أمية وبني هاشم، على طريقة أبي العلاء المعري:

عبد شمس قد أضرمت لبني هاشم حرباً يشيب فيها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند لعليٍّ وللحسين يزيد

وكان القضية حرب عائلية بين بني حرب وبني هاشم!! مع أنَّ القضية، كما طرحها الإمام الحسين عليه السلام، هي قضية الاستقامة والانحراف، والإسلام والضلال.. نعم تلك القضايا كانت تعيش في آفاق سابقة، تتحمل مفاهيمها، أما الآن، ونحن في هذا الواقع الذي انطلق فيه الإنسان بعيداً عن العصبية العائلية، لا بدّ لنا من أن نتجاوز مثل هذا، وأن نختار من الشعر ما يمكن أن يتناسب مع القضايا التي يعيشها الإنسان المعاصر.. وأن نُبرز القضية كما هي في الواقع: قضية الإسلام والكفر والهدى والضلال.

المعاناة الثقافية

لا بدّ لنا أن نعاني ثقافياً، وأنا أدعو، إلى القراءة الدائمة، والحوار الدائم، والدراسة الدائمة، حتى إنّه إذا وُجد أناس يملكون الفكر والنقد التاريخي، فلا

مانع - إن لم نقل يجب - أن نأخذ درساً في مسألة القضية الحسينية، مضمونها، أسلوبها، طريقة التعبير عنها، تماماً كما نعمل على أن ندرس المعاني والبيان والنحو وأصول الفقه.

وهذه المسألة قد تكون بالنسبة إلى الخطيب الممتّهن من أكثر الدراسات أهمية، كما لا بدّ لنا أن نوجد بعض المدارس للخطابة الحسينية التي يمكن أن تختار للخطيب الكثير ممّا يقرأ، وأن توجه فكره إلى الكثير ممّا يحضّر.

للخطابة أصول وشروط

وهناك نقطة أخيرة، وهو أنه كانت قراءة التعزية أو الخطابة في عصرنا في بداية العصر الذي عشناه في النجف كانت تمثل تلمذة، بحيث يقرأ الخطيب التلميذ (المقدمة) - كما هي العادة آنذاك - أمام أستاذه، الذي كان يُعَدُّ من شيوخ الخطباء، ثم إنَّ الأستاذ الذي يملك تجربة كبيرة في مجال الخطابة، يوجّه تلميذه، حتّى ينشأ الخطيب خطيباً ممتّهنًا. أما إذا نشأ الخطيب على نفسه، فإنّه من الصعب أن يركّز قواعده على أسس متينة، نعم قد يملك الشخص عبقرية، ولكن لكل مهنة شروط، وأصول، وقواعد، ولا إشكال أنّ الخطيب الممتّهن المتمرّس المجرب يملك الكثير ممّا يمكن أن يعطيه، والتجربة قد تعطي الإنسان فكراً أكثر ممّا يقرأ في كثير من الحالات»^(٦٧).

لنتقّف الأسلوب في التعبير

لم يكتفِ المرجع الراحل السيد فضل الله بنقد الواقع، بل قدّم أسس التغيير إلى الأفضل، والتطوير في المجال الخطابي والشعري فقال: «لذلك نحن بحاجة إلى أن نستغني عن كلّ هذا الرّكام، ومن المؤسف جداً أنّنا لا نرى إلا عدد أصابع اليد في كلّ هذا الواقع من الذين يتلون السيرة ممّن يملك رحابة السيرة وأفقهها

(٦٧) المصدر السابق.

في القضية الكبرى، لا نملك الإنسان المثقف الذي يملك ثقافة الفكرة وثقافة إدارة العاطفة، نحن نعرف أنّ الإنسان تطوّر، فأساليبنا في الشّعْر الآن تختلف عن أساليبنا في أيام امرئ القيس، وأساليبنا في النثر تختلف عن أساليب فلان وفلان من أدباء النثر، حتّى إنّ أساليبنا في التعبير عن العاطفة اختلفت، لأنّ الصّورة التي عاشها الإنسان في تطوّرهِ الفكري تختلف عن الصورة التي عاشها أولئك، كانت المسألة هناك أن الخيم تمثّل الموقع، ولكن في عالم المدينة ماذا تمثّل الخيم، كانت المسألة هناك أنّ المرأة عندما تكشف وجهها تمثّل مأساة للعفة وما إلى ذلك، أما الآن فأصبحت مسألة طبيعية».

لذلك لا بدّ لنا أن نثقف الأسلوب، لأنّ القضية تبقى في عناصرها الطبيعية، نحن لا نريد أن نطوّر القضية فنبتعد بها عن عناصرها الطبيعية، لأنّ علينا أن نُبقي التاريخ صادقاً، ولكن لا بدّ لنا أن نطوّر الأسلوب، ونحن نعرف المثل المعروف، الأسلوب هو الرجل وهو المرأة، هو الإنسان (قل لي ما هو أسلوبك، ما هي طريقتك في إدارة الأمور العامّة والخاصّة، أقل لك من أنت)، لا يكفي أن تملك الفكرة، إنّ الكثيرين من الناس أسقطوا تفكيرهم الأصيل بأساليبهم المتخلّفة، ونحن قد لا نشكو في بعض الحالات من مشكلة الفكر، ولكن نشكو من مشكلة الأساليب، إنّك تعيش في هذا القرن وأنت تتحدّث بأسلوب ترجع فيه إلى الوراثة مئات السنين، ونحن نعرف أنّ الذهنيّة لغة.

عندما تريد أن تعيش عصرك لا بدّ لك من أن تتحدّث بذهنية عصرك، وأنا لا أقصد من الذهنيّة أن تُسقط أفكار العصر، ولكن المقصود بذلك هو أن تتفهّم روح العصر لتتمكّن من أن تنفذ إلى عقل الإنسان من خلال الذهنية التي تخاطب عقله، وأن تنفذ إلى قلبه من خلال الوسائل التي تنفذ فيها إلى قلبه.

ولذلك لا بدّ لنا من إنتاج شعر جديد، ونثر جديد، ربّما تكون المأساة في

عاشوراء محدودة في ما هو الصدق التاريخي، بحيث لا يملك الخطيب ما يريد في إثارة الدّمة وإثارة المشاعر، لكن عندما تكون خطيباً مثقفاً، أو خطيباً أدبياً، تعرف كيف تحرّك الكلام وتركّبه وتنظّمه في عملية إثارة المشاعر، ربّما تقف لتعطي الصورة الكربلائية في المأساة وتنهّم الدموع دون أن ترجع صوتك أو تأتي حتّى ببيت شعر، المهم أن تعرف أين هي نبضات المشاعر عند الإنسان وما الذي يحركه.

أساليب الاحتفال بالذكرى

إنّ لكل عصر أسلوبه في الإثارة والتعبير عن العاطفة والمأساة، فما كان يصلح للماضي قد لا يصلح للحاضر. فمثلاً هناك بعض أساليب إقامة الذكرى تتمثّل في بعض التقاليد التي درج عليها قسم من الشّيعية نتيجة ظروفهم التاريخية السّابقة، وطبيعة تصوّرههم لأسلوب التعبير عن العاطفة، كما في ضرب الرؤوس بالسيوف، والظهور بالسلاسل، والزمن الحاضر يرفضها، كما أنّها ليست من أساليب التعبير عن الحزن والمأساة، وهي وجه من وجوه التخلف.

نحن نقول إنّ علينا أن نطوّر أسلوب الاحتفال بالذكرى، من خلال تجديد المضمون الفكريّ في النظرة إلى المأساة، بحسب الأساليب الفنية والأدبيّة الحديثة، حتّى يمكن للعصر أن يتعرّف على هذه المضامين.

ومن هنا فنحن نتحدّث عن ضرورة إدخال قضيّة الحسين (عليه السلام) إلى المسرح الحديث والسينما، بحيث تُكتب السيرة كتابة فنية مبدعة، تخاطب الإنسان في العالم، من خلال عناصر الإنسانيّة الحيويّة الموجودة في داخلها.

ونحن نقول: لا بدّ من بقاء الفكرة على أصالتها وحيويّتها واستقامتها، ولكن أسلوب التعبير عنها يخضع للظروف الموضوعية، والواقع الفكري والشعوري

العام، ويختلف كما يختلف أسلوبنا في اللباس أو في طريقة الحياة عن الماضين. إنني أؤمن بأن علينا أن نطور طريقة استعادتنا لكل ذكرياتنا، ولكل الأساليب الحية التي يمكن أن تجعل للذكرى امتداداً في وعي الإنسان في الحاضر»^(٦٨).

الاقتداء بزینب الكبرى

وفي عودة لملاحظاته حول المفاهيم القلقة والمعالجات الخاطئة للنهضة الحسينية، قال المرجع الراحل في تشخيص موطن الخلل في الخطاب الحسيني الموجّه للمرأة: «العنصر النسائي يبحث عن القدوة في التاريخ، والقدوة في الحاضر، لأننا كما نحتاج إلى الخطّ نحتاج إلى القدوة التي تجسّد لنا الخط، والآن.. هل منكنّ من لا تحبّ السيدة زينب عليها السلام؟ لكن السؤال: هل توافق كلّ واحدة منكن أن تكون صورتها في حياتها على صورة السيدة زينب عليها السلام، بأن يكون عقلها عقلاً إسلامياً كعقل السيدة زينب عليها السلام، وأن تكون عاطفتها عاطفة عاقلة كعاطفتها، وأن تكون حركتها حركة السيدة زينب عليها السلام، كأن يكون تقيدها الإسلامي سواء في لباسها وحجابها على طريقة السيدة زينب عليها السلام؟ ثم ما رأيكنّ لو جاءت السيدة زينب عليها السلام الآن وطلبت من كلّ النساء الحجاب الإسلامي والسير في خطّ الإسلام الحركي، ومواجهة اليهود والمستكبرين، فهل نتحمّلها؟ أخشى أن نقول لها: إسمحي لنا، فوقتنا غير وقتك.. وقتك في التاريخ، ونحن لسنا مستعدين لتقبّل إنسانة تخرجنا من حالتنا هذه.

لذلك علينا أن نفكر أنّنا عندما نريد أن ننتمي لإنسان، فلا بدّ أن نسعى لنحاول أن نكون على هداه وصورته.

طفل حتّى في الخمسين

ونحن مراراً نقول للمرأة المسلمة أن تأخذ دورها في الحياة الاجتماعية والثقافية،

فإن الله لم يعزل المرأة عن حركة الحياة. وإذا كانت الأمومة من قدس المرأة، فالأبوة أيضاً من قدس الرجل، وكما أن الأبوة لا تمنع الرجل من أن يقوم بحركة رسالية من أجل المجتمع والأمة، بأن يتقّف نفسه ويكون واعياً ويستفيد من تجربته وتجربة الآخرين، وأن يكون جاداً في الحياة، ولا يواجهها مواجهة اللامبالاة، فالمرأة كذلك، لا بدّ أن تحترم نفسها بأن تحترم عقلها وإنسانيّتها وثقافتها.

العقل الفارغ من الثقافة يبقى طفلاً حتّى وهو في الخمسين، لذلك علينا أن نتعلّم ليس فقط بدخول المدارس والجامعات، فالتعلم يمكن أن نحصل عليه بالقراءة والاستماع وبالحوار.

لذلك نحن لا نريد المرأة المسلمة الجاهلة كما لا نريد الرجل المسلم الجاهل ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، والإسلام دفع المرأة في القرآن الكريم من خلال هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، والأمر بالمعروف يتّسع لحجم كل الخير في العالم، والنهي عن المنكر يتّسع لمواجهة كلّ الشر في العالم، ولذا يتّسع لكلّ قضايا الحياة، وكلّ حالات الصّراع الاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ، وما إلى ذلك»^(٦٩).

الانطلاق من وعي زينب للقضية

وقال (قدس سره) في التأكيد على أنّ الضعف ضعف إنسانيّ يعاني منه الرجل كما يعاني منه المرأة، وأن بإمكانهما تحويل الضعف إلى قوة: «على المرأة أن تنطلق لتكون قويّة واعية في مواجهة كلّ قضايا أمّتها، ودينها، ومبادئها، فلا تقلّ كلّ واحدة منكنّ إنّ المرأة ضعيفة، نعم، قد يكون لها بعض ضعفها، كما أنّ للرجل بعض ضعفه، فإنّ الله لم يتحدّث في القرآن عن ضعف المرأة، ولكن

تحدّث عن ضعف الإنسان: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] ، والضعف حالة تعيش في طبيعة وجودنا، ولكن الله أعطانا العقل والإرادة والوسائل التي نستطيع من خلالها أن نحوّل ضعفنا إلى قوّة، لذلك، فالضعف ليس قدر الرجل أو قدر المرأة، بل هو حالة يعيشها الإنسان في طبيعة تكوينه، وقد أراد الله له أن يأخذ بأسباب القوّة، بأن يقوّي عقله ليكون له العقل القوي، وأن يقوّي قلبه ليكون له القلب القوي، وأن يقوّي مبادراته وتحدياته..

إنّ الله يريد للمرأة أن تتحمّل مسؤوليّتها في أمومتها، كما يريد للرجل أن يتحمّل مسؤوليّته في قضايا الأمّة، كما يريد له أن يتحمّل الأبوة، فالأبوة والأمومة مسؤوليّتان تتّصلان بعمق حركة الرجل والمرأة في انطلاقة الحياة، والأم تحتاج أن تجعل لوليدها حياة حرّة، ومستقبلاً حرّاً، وساحة قويّة، والأب يحتاج إلى أن يهيّئ لولده مستقبلاً حرّاً، وقوّة كبيرة، حتّى ينشأ أولادنا في المستقبل أقوياء في مجتمع قوي، أعزاء في أمّة عزيزة، تعيش روحية الإنتاج، ولا تبقى في حياة الاستهلاك.

إنّ القضية هي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة : ٧١] والمعروف هو كلّ ما يرفع مستوى الإنسان في الحياة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والمنكر هو كلّ ما يُسقط الإنسان في الحياة. فهل نبدأ من عاشوراء لنكون الأمّة التي تتحدّى الظلم كلّّه، والاستكبار كلّّه، لنحصل على العزّة والكرامة والعنفوان؟ «كلّكم راع وكلّ راع مسؤول عن رعيته».. ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] (٧٠).

دور المرأة في الإصلاح

«لنأخذ من عاشوراء وعي حركيّة الإنسان كلّّه، فلقد عشنا ونحن نفكر أنّ

المرأة لا دور لها في حركة الإصلاح، والصراع، والثورة، وأصبح ما عشناه شيئاً مقدساً، وأصبحت فكرتنا التقليدية أنّ للمرأة البيت وليس لها السّاحة العامّة، ولكن عاشوراء قالت لنا إنّ للمرأة دوراً قيادياً مع قيادة الرجل، وبعد قيادته.

إنّ زينب عليها السلام كانت تمثّل رمز المرأة التي تملك عقلاً قيادياً، وروحاً قيادية، وصبراً وتحدياً قيادياً، وتملك أن تحتوي الواقع كلّ لتعرف كيف تخطّط له، فلم تتحدّث مع ابن زياد حديثاً انفعالياً، بل كان مدروساً حتّى في قولها له: «ثكلتك أمك يا ابن مرجانة»، فلقد أرادت أن تسقط عنفوانه في مجتمعه، وكذلك عندما وقفت تخاطب يزيد: «كد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فلن تميت وحينا ولن تمحو ذكرنا» فلقد كانت تفكر بكلّ كلمة من كلماتها، وكانت إنسانة تعيش التخطيط لكلماتها كما كانت تعيش التخطيط لحركيتها، تماماً كماّمها الزهراء عليها السلام في حركتها من أجل الحقّ في موقع عليّ عليه السلام، فلقد كانت تقيّة في خطبتها في المسجد النبوي الشريف، وفي حديثها مع النساء، حيث تناولت المواضيع الحسّاسة التي تستهزئ الرجال عندما تنقل لهم نساؤهم ذلك، وكانت تمثّل التحديّ بتخطيط، وكانت تنطلق برساليّتها من خلال فهمها للواقع وللذين يتحرّكون فيه. وهكذا كانت أمّها خديجة رضوان الله عليها في أسلوبها العمليّ في دعم واقع الدّعوة الإسلاميّة الأوّل، فلا يقلّ أحد إنّها قضية خاصّة. إنّها قضية تنطلق من عمق المسؤوليّة الإسلاميّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قضايا الدّعوة والحركة والجهاد في سبيل الله، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، سواء كان المعروف سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو أمنياً، تماماً كما هي مسؤوليّة الرجل، وعلى المرأة أن تتكامل مع الرجل في عمليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على خطّ تغيير الواقع»^(٧١).

الأساليب الدخيلة في إحياء الذكرى

كان المرجع الراحل السيّد محمد حسين فضل الله قدس سرّه كثير النقد لبعض ما يُمارَس ويُصوّر على أنّه من صميم شعائر إحياء الذكرى الحسينيّة، في الوقت الذي يعتبره من حيث الفتوى ومن حيث التحليل التاريخي والاجتماعي والإعلامي تصرفات دخيلة لا علاقة لها بالإسلام ولا بالقضيّة الحسينيّة، بل هي تعمل على تشويه صورة هذه النهضة المباركة، وحرف أهدافها.

وقد أثارت فتواه بتحريم ضرب الرؤوس بالسيف، وضرب الظهر بالسلاسل، أجواءً عدائيّة، تماماً كما واجهها من سبقه من مراجع وفقهاء أفتوا بذات المضمون، لاسيّما وأنّ سماحته لم يكتفِ بذكر الفتوى معلّقة على عناوين معيّنة، إنّ انطبقت حرّمت وإلاّ فلا، بل شخّص الموضوع الخارجي، وقدم الفتوى واضحة لا لبس فيها ضمن معطيات الواقع الذي درسه عن دراية وإحاطة ووعي.

نظرة فقهية

إنّ فتاوى الفقهاء عبر العقود الماضية والتي جاءت متضاربة في باب تحريم ضرب الرؤوس بالسيوف وما إليها من ممارسات دخيلة، أثارت تساؤلات البعض حول حقيقة الموقف الشرعيّ منها، ومن هذا المنطلق قال المرجع الراحل (قدّس سرّه): «إنّنا نتصوّر أنّ الاجتهاد لم يختلف في القاسم المشترك بين طريقة الاحتفال في الماضي والحاضر، وهو إقامة مجالس العزاء، كما أنّ الماضي كان يخزن اللّطم، ولكن بشكل هادئ معبر عن الحزن، ولكن ما حدث هو بروز لبعض العادات الشعبيّة، كضرب الرؤوس بالسيف، وضرب الظهر بالسلاسل، وهذه العادات لم تنطلق من اجتهاد فقهيّ شارك في إنتاجها وتحويلها إلى عادة شعبيّة لدى الناس، بل إنّ مثل هذه العادات انطلقت من

مبادرات فردية ما لبثت أن تحولت إلى حالة مقدسة، استثارت عاطفة الناس فقلدوها، ثم تعاضمت العاطفة، وتجدرت العادة، بحيث أصبحت من المقدسات التي قد لا يجزؤ حتى العلماء على مواجهة المد الشعبي في ذلك إلى درجة أصبح الذين يقفون ضد هذه العادات يوصمون بأنهم ضد الحسين وأهل البيت عليهم السلام، وأنهم يريدون إسقاط هذه الذكرى وإبعادها عن الوجدان الشعبي، وما إلى ذلك. وقد ثارت الفوغاء - وحتى من بعض العلماء - ضد سماحة المرجع السيد محسن الأمين قدس سره عندما حرّم هذه العادات في كتابه (التنزيه في أعمال التشبيه) وعانى الكثير، حتى سُبّ وشتم ونُظمت القصائد في هجائه.

لكن قد يقول قائل: إن هناك من المجتهدين الكبار جداً ومن المحدثين، قد أفتوا منذ خمسين أو ستين سنة بإباحة هذه الشعائر، وبأنها ليست محرمة في ذاتها، إلا إذا أدت إلى التهلكة. وعن التساؤل عن أسباب صدور هذه الفتاوى، فإنه يمكن القول بأن المسألة انطلقت من جدل فقهي عنوانه: هل يحرم إضرار الإنسان بنفسه إذا لم يكن الضرر بالغاً، كأن يجرح الإنسان يده، أو يجرح رأسه، أو ما إلى ذلك، ممّا لا يشكل خطراً على حياته؟ أي هل الضرر محرّم في ذاته، في مقابل القول إن المحرّم هو الإضرار الذي يؤدي إلى التهلكة، أو إلى وضع صحي خطير؟

وقد صدر رأيان اجتهاديان في هذه المسألة: فهناك من قال بحرمة الإضرار بالنفس من ناحية مبدئية، إلا في الحالات التي تكون هناك مصلحة أهم، كما في تعريض الإنسان نفسه للضرر في الأسفار، أو في سهر الليالي، حتى يحصل على ربح مادي أو معنوي، حيث هناك ميزان بين المفسدة في الضرر وبين المصلحة، وهذا أمر إنساني يفيد أنه إذا كانت المصلحة أقوى من المفسدة، فإنها تجمد المفسدة، وشرعياً نضع هذا الأمر في «باب التزاحم» أي أنه إذا تزاخم حكم تحريمي ما مع حكم وجوبي أو جائز، وكانت المصلحة هنا أقوى من

المفسدة هناك، فإنها تجمّد حكم التحريم، وعلى هذا الأساس فهؤلاء يقولون إنّه يحرم على الإنسان أن يجرح نفسه، حتّى في التعبير عن التأسّي أو المحبّة، وغير ذلك.

وهناك رأي اجتهادي آخر يتبنّاه الكثيرون من العلماء، وهو أنّه لا يحرم على الإنسان أن يضرّ نفسه إذا لم يصل الضرر إلى حالة صحيّة سلبية كبيرة، أو إلى التهلكة، وعلى ضوء ذلك أفتى هؤلاء العلماء بأنّ ضرب الرأس بالسيف حزناً أو مواساةً ليس محرّماً في ذاته وإنما يحرم إذا كان الضرر مؤدياً إلى التهلكة.

وهناك تحفظات لدى بعض العلماء الذين يقولون بالإباحة من حيث العنوان الأوّلي، أي من حيث المبدأ، ذلك أنّهم يرون أنّ هذا الأمر، وفي حالات معيّنة، قد يحرم لأنّه قد يحرم من ناحية العنوان الثانوي، وهذا ما أجاب به المرجع الكبير الراحل السيّد أبو القاسم الخوئي رحمته الله عندما سُئل عن الضرب بالسيف والسلاسل، فأجاب أنّه لا يجوز إذا استلزم الهتك والتوهين، وعندما سُئل مرة ثانية كيف تفسّر الهتك والتوهين؟ فقال: ما يوجب الذلّ والهوان للمذهب في نظر العُرف السائد.

أما رأينا في الموضوع فهو الافتاء بالحرمة، لأنّنا نرى أنّه يحرم إضرار الإنسان بنفسه، إلا في الحالات التي تفرضها الضرورة؛ ولذلك قلنا بأنّه يحرم ضرب الرأس بالسيف، أو ضرب الظهر بالسلاسل، وحتّى اللطم العنيف الذي يوجب إضراراً بالإنسان ولو إضراراً غير خطير، لأنّنا نستفيد من النصوص التي بين أيدينا حرمة الإضرار بالنفس، كما أنّنا نجد أن السيرة العقلائية تقتضي ذلك، فالتّاس يستنكرون على أيّ إنسان يضرّ نفسه إذا لم تكن هناك مسألة أهم وأوّلَى بالرعاية من هذا الإضرار، ومن هنا فإنّنا نرى أنّ هذا أمرٌ محرّم شرعاً، حتى لو كان ذلك بعنوان الحزن والمواساة.

ولديّ ملاحظة أخرى في هذا المجال وهي أنّ الذين يضربون رؤوسهم بالسيف أو ظهورهم بالسياط، يقولون: إنّنا نريد أن نواسي الحسين عليه السلام في جراحاته، أو نواسي زينب عليها السلام وأخواتها عندما جُلدت بالسياط، فتجلد ظهورنا، ونجرح رؤوسنا. لكنني أقول: إنّ المواساة تفرض أن تُجرَح في الموقع الذي جُرِح فيه الحسين عليه السلام، وأن تُجلد في الموقع الذي جُلدت فيه زينب عليها السلام. فالحسين عليه السلام جُرِح وهو يجاهد، ولذلك فالذين يواسون الحسين عليه السلام هم الذين يجاهدون العدو الإسرائيلي من شباب المقاومة، فهم يُجرَحون في الموقع الذي جُرِح فيه الحسين عليه السلام، والذين يواسون السيدة زينب عليها السلام هم الذين يُجلدون في سجون العدو، لأنها جُلدت وهي في خطّ الثورة والقضيّة، سواء كانوا من الرجال أو النساء.

لهذا فإنّني أجد أنّ هذه العادات لا بدّ من إزالتها من ناحية شرعية، لأنها محرّمة بالعنوان الأوّلي بناءً على رأيّنا، ومحرّمة بالعنوان الثانوي أيضاً، من خلال السلبات الكثيرة على مستوى الإنسان، وعلى مستوى صورة المسلمين الشيعة في العالم، ولذلك قلنا: هي نوع من أنواع التخلف»^(٧٢).

التأثير السلبي للعادات المتخلفة

وفي بيان بعض التأثيرات السلبية لهذه الممارسات قال (رحمه الله): «ثم إنّنا نقف أمام الكثير من العادات والتقاليد التي أُعطيت عنوان المواساة للإمام الحسين عليه السلام، مثل ضرب الرؤوس بالسيف، حتّى إنّ بعض الناس من غير المسلمين قالوا إنّ سيوف الشيعة كانت ترتفع ضدّ أعدائهم فأصبحت ترتفع كي يضربوا بها رؤوسهم، وأصبح هذا من المقدّسات لديهم! مع أنّ كلّ هذا ليس له أصل في سيرة الأئمّة عليهم السلام ومنهجهم. لكن يُذكر أنّ بعض

(٧٢) من مقابلة أجرتها جريدة السفير اللبنانية مع المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله في ٢٧/٥/١٩٩٠، نقلًا عن موقع بينات.

الأشخاص - ويقال إنه تركي - ضرب رأسه بالسيف بعد أن سمع مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، ليقلده الناس فيما بعد، وليستمر هذا التقليد منذ قرن من الزمن.

كما تنقل شاشات التلفزيون بعض الاحتفالات - والتي للأسف لا يوجد إشراف ديني عليها - حيث «يُذَر» بعض الناس أطفالهم فيشجون رؤوسهم، لتتنقل الصحف ووسائل الإعلام هذه الصور. وقد اطلعت على مجلة كندية تصوّر شخصاً أشيب، وهو يحمل طفلاً يبكي بكاءً شديداً، بعد أن شجّ رأسه، وتعلّق الصحيفة على هذا المشهد: «هذا يُفعل باسم الله!». فإذا كان تعذيب النفس محرماً شرعاً من خلال حرمة الإضرار بالنفس، فكيف بتعذيب الطفولة؟! إن هذا حرام شرعاً! بل هو جريمة! فلا ولاية للأب أو للأُم أن يفعلوا بأطفالهم ذلك، فالولاية إنما جعلت للأب من أجل رعاية الطفل وإصلاح أمره. ولكن للأسف، فإن هذه العادات المتخلّفة أصبحت من المقدّسات، وأصبح الكثير من العلماء يفتون بأن هذا مستحبّ. كما أنّ الكثير من العلماء - هداهم الله - يعتبر أنّ التشيع يكبر من خلال هذه العادات والتقاليد»^(٧٢).

المشي على النار

وأضاف: «نعرّج في هذا المجال على عادة ضرب الظهور بالسلاسل التي مازالت تُمارس في بعض المناطق، كما أنّ البعض يضع في هذه السلاسل أشياء حادة كي يجرح ظهره، إضافةً إلى أنّ بعض الناس في كربلاء كانوا يمشون على النار احتفالاً بالإمام الحسين عليه السلام، وقد حرّم السيد محسن الأمين رحمته الله هذه الممارسات.

(٧٢) محمد حسين فضل الله: مقال بعنوان عاشوراء تأملات في السيرة والروايات، نقلاً عن موقع مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر.

ونشاهد، أيضاً، تقاليد جديدة على الشّاشات، ففي بعض البلدان يزحف بعض النّاس واضعين خدودهم على الأرض مواساةً للحسين (عليه السلام)، كما يقفل آخرون لحملهم بالقفل مواساةً للحسين (عليه السلام)، ويمشي بعضهم مشي الكلاب بعنوان التّواضع للإمام الحسين (عليه السلام). وهكذا تطالعنا كلّ سنة أشياء جديدة. وقد سئل السيّد الخوئي عن هذه الممارسات وأمّثالها: هل هي من الشّعائر؟ فأجاب: إنّها ليست من الشّعائر.. ونحن نوّكد أنّ المواساة لا تكون بهذه الصّورة. وعلى سبيل المثال، لو أنّ أحداً ما أخبر بأنّ ابنه قد قُتل، فهل يضرب رأسه بالسيف، أو يضرب ظهره بالسّلاسل حتى يعبر عن حزنه؟ هذا ليس عقلاً أبداً.

لقد قلت لهؤلاء: ليست هذه طريقة لمواساة الإمام الحسين (عليه السلام)، إنّ الذين يواسونه هم الذين واجهوا الصّهاينة في جبل صافي، وفي حرب تموز وفي جميع المواجهات مع الصّهاينة... هؤلاء الشّباب المخلصون الطيّبون المجاهدون، هم الذين يواسون الإمام الحسين (عليه السلام) حقّاً، لأنّ الإمام جرح واستشهد وهو يجاهد»^(٧٤).

الغوغاء في مواجهة المصلحين

وفي دعوة منه لمواجهة كلّ صور التخلّف في إحياء ذكرى عاشوراء، وتحويلها إلى أعمال إيجابية قال (قدّس سرّه): «لا بدّ من صوت ينقذ هذه الذكرى من كلّ هذه الوسائل، نحن نعرف أنّ مثل هذه النذورات هي نذورات محرّمة في مستوى الجريمة، لأنّك إذا كنت تملك أن تسيل الدماء من رأسك فأنت لا تملك طفلك، لا يجوز لك أن تعذب الطفولة حتى باسم الحسين، لأنّ الحسين (عليه السلام) كان يقف ضدّ هؤلاء، لأنّهم كانوا يعذبون الطفولة ويقتلونّها.. نحن طرحنا ولا

(٧٤) من محاضرة ألقاها المرجع الراحل السيّد محمد حسين فضل الله في المجلس العاشورائي الذي أقامته جمعية التعليم الديني الإسلامي في شهر محرم الحرام سنة ١٤٢٠ هجرية، نقلاً عن موقع بينات.

نزال مطرح: هل تريدون أن تقدّموا دماءكم للحسين عليه السلام؟ هل تريدون أن تستنزفوها عن روح الحسين عليه السلام؟ إنّ هناك جرحى للانتفاضة يحتاجون إلى الدم، لماذا لا نطلق في عاشوراء لنبحث عن أيّ مكان يمكن أن يكون مصرفاً للدم لنقدّم هذه الدماء احتفالاً بعاشوراء ومواساة بالحسين عليه السلام لنواسي كربلاء الفلسطينيين.

إنّنا بذلك نستطيع أن نقدّم للعالم في حركة المأساة التي تتفاعل بها شيئاً حضارياً إيجابياً حركياً، يقف مع المجاهدين ليعطيهم من دمائه إذا لم يستطع أن يعطيهم من طاقته في الحرب، ربّما كانت هذه الأساليب قبل مئة سنة أو أكثر لها تأثير في ذهنيّة الناس، ولكن الآن لم يعد هناك لها مكان في الواقع^(٧٥).

وفي ردّ شبهة أنّ الأمر مباح أو مطلوب ما دام أنّ الإضرار بالنفس لم يصل إلى حدّ التهلكة قال (قدّس سرّه) «هناك من يقول بأنّه إذا لم يؤدّ هذا الإضرار بالبدن إلى التهلكة ليس حراماً، وهناك رأي آخر يقوله الشيخ الأنصاري وآخرون، ونحن نقول به إنّ الإضرار بالبدن هو ظلم للنفس وظلم النفس محرّم تماماً كما ظلم الغير، محرّم.

لو فرضنا أن إنساناً جرح يده ألا يُقال ظلم نفسه، لو أنّ إنساناً تعرّض للهواء البارد وأصيب بحمّى يمكن أن يشفى منها بعد أسبوع، ألا يقال إنّ ظلم نفسه، الإضرار بالنفس غير عقلائي، لذلك يخلطون الأمر على الناس، ويصدرون فتاوى تتطوّل من حالة تجريدية، وأهميّة وعي السيد الخوئي أنّه انطلق من حالة واقعية. لذلك نقول إنّ المفتي لا بدّ أن يكون لديه ثقافة الواقع كما يكون لديه ثقافة الإسلام.

(٧٥) من محاضرة ألقاها المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله في قاعة الجنان في بيروت في السابع من محرم ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٣ آذار ٢٠٠٢م، نقلا عن موقع بينات.

لذلك نحن نصغر عاشوراء عندما نحبسها في كل قماقم العصبية والطائفية والحزبية وما إلى ذلك، أتركوا عاشوراء تتنفس في الهواء الطلق، فسوف تصنع لكم هواءً نقياً، نقياً في العقل وفي القلب وفي الحياة، أتركوا عاشوراء تعيش في الشمس، في الصحو المبدع، فسوف تضيء لكم الطريق في كل ظلماته، أتركوا عاشوراء تعيش في كل هذا الصفاء والنقاء الروحي، لتستطيع أن تعطىكم صفاء العقل والروح والحياة.

إننا نعيش في وحلٍ ثقافيٍّ ووحلٍ عاطفيٍّ واجتماعيٍّ حتّى أدمنا الوحل، وأصبحت الينابيع الصافية مشكلتنا التي لا نرتاح إليها. تعالوا للحسين، لقد كان الحسين عليه السلام ينبوعاً صافياً في الروح والعقل والحركة»^(٧٦).



خاتمة

إنَّ التراث الفكريَّ للمرجع الراحل العلامة السيّد محمد حسين فضل الله (قدس الله نفسه الزكية) في إطار النهضة الحسينيّة واسع جداً، وقد أثاره في كثير من محاضراته وكتاباتهِ، ولأكثر من خمسين سنة من عمره المبارك الذي ملأ من خلاله حياة أولئك الذين أحبّوه وتعلّقوا بفكره وحركته، وملأ من خلاله حياة أولئك الذين وقفوا منه موقفاً سلبياً لبيّن لهم ما يريد، وليقيم عليهم الحجّة فيما اختلفوا فيه معه.

ومن خلال ذلك العطاء في إطار القضية الحسينيّة استطاع المرجع الرّاحل أن يكمل مسيرة مَنْ سبقه من مراجع وعلماء ومفكرين حرصوا على أن يقدّموا النهضة الحسينية في أنصع صورة بعيداً عن أيّة أساطير وتحريفات وأوهام وإضافات ألصقت بها عمداً أو جهلاً، وبما يجعلها قضية حيّة في التاريخ، وحيّة في الضمير، وحيّة في حركة الواقع.

إلاّ أنّ فقيدنا الغالي امتاز بسعة آفاق ما طرح، وبمعالجته لقضايا كثيرة لم يتطرّق إليها مَنْ سبقه، فكانت معالجاته واقعيّة حركيّة، بعيداً عن عالم الفلسفة التجريدية، والصوفيّة الحالمّة، والتنظيريّة المثاليّة.

وجاءت محاضراته وكتاباتهِ في دراسة واقع المنبر الحسينيّ في إيجابيّاته وسلبيّاته كمفردة من مفردات عطائه الفكريّ والإصلاحيّ في إطار القضية الحسينيّة، حيث لم يتوقّف عند النقد السلبي، وترفّع عن لغة التجريح، وانطلق

ليرسم معالم المنبر الحسيني الذي يستقي صورته من التاريخ، ويقيم أُسسه على القيم الإسلامية الأصيلة، ويقدمه من خلال حركة الواقع الذي يعيشه، ليكون منبراً من منابر الهداية والإرشاد والإصلاح.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾
[إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

الفهرس

المقدمة..... ٥

بين يدي البحث..... ٧

أولاً: أهمية المجالس الحسينية..... ٩

أ - توضيحات تحمّلنا المسؤولية..... ١٠

ب - البعد الحضاري للمجالس..... ١١

ج - قضية الحسين عليه السلام للجميع..... ١٢

د - البكاء أمر طبيعي..... ١٤

هـ - البعد الشرعي للمجالس..... ١٥

ثانياً: النقد البناء..... ١٧

أ - مفهوم النقد..... ١٨

ب - النقد الذاتي في الإسلام..... ٢٠

١ - ما هو النقد الذاتي؟..... ٢٠

٢ - حاجتنا إلى النقد الذاتي..... ٢١

ج - الأسلوب الإسلامي..... ٢٣

د - النقد بين الإفراط والتفريط..... ٢٦

هـ - تراث المجتهدين..... ٢٨

و - القداسة لمن؟..... ٢٩

ثالثاً: نماذج إصلاحية..... ٣١

١ - الميرزا النوري في مواجهة الأكاذيب..... ٣١

٢ - عباس القمي وتقريبه بالمكذّبين..... ٣٩

- ٢- العلامة محسن الأمين ورؤاه الإصلاحية ٤٦
٤- الشيخ أحمد الوائلي والتجديد ٤٧

رابعاً: البُعد عن الواقع..... ٥٣

- المسؤولية تجاه الدعوة ٥٦
شخصية الداعية المسلم ٦١
الذاتية في عصور الانحطاط ٦٣
الصورة القلقة ٦٤
الثقافة للإسلام ٦٦
الحاجة إلى ثقافة هادفة ٦٦
التَّرف الفكري ٦٨
لا نستغرق في تاريخ الماضين ٦٩
انطلاقة النبي ٧٠
لا قداسة للتاريخ بذاته ٧٠
لا تقتلوا عقولكم ٧١
إدخال الإسلام في العصر ٧٢
مواجهة العصر في مدى الرسالة ٧٢
التحديات في حجم العالم ٧٣
لكلِّ مقام مقال ٧٣

خامساً: عاشوراء إسلامية في قيمها ٧٥

- الاستفادة من دروس عاشوراء ٧٦
عاشوراء في حركة الواقع ٧٨
الجمود على الماضي ٨٠
بين الشُّعار والموقف ٨١
حالة إسلامية سياسية ٨٢
ديننا سياسة، وسياستنا دين ٨٥
لماذا أرسل الله الرُّسل؟ ٨٥
كربلاء.. نهجٌ وشرعيةٌ ٨٦

عمق إسلامي وتطلعات إنسانية ٨٨

عاشوراء امتداد لحركة الرسول ٨٨

فلنكبر بعاشوراء ٨٩

سادساً : الاقتصار على البعد العاطفي ٩١

العاطفة في عاشوراء ٩٤

بين البكاء والتباكي ٩٤

عقلنة العاطفة ٩٥

بين الوعي والتقليد ٩٦

لماذا الإصرار؟ ٩٨

اختلال الموازين وشرعية التحرك ١٠٢

العنوان خاص أم عام؟ ١٠٤

حركة الأئمة عليهم السلام ١٠٦

سابعاً : الاستقراق في المعاجز ١١٣

تعريف المعجزة ١١٣

معاجز الأنبياء ١١٤

إيمان العقل والفطرة ١١٦

خلود معجزة القرآن ١١٧

معضلة العقلية المعاجزية ١١٩

امتداد للفكرة الخاطئة ١٢١

أسى وتآلم ١٢٣

الاعتماد على الأخبار الضعيفة ١٢٧

المصادر المعتبرة ١٢٩

المصادر غير المعتبرة ١٣٢

نقد السيرة الحسينية ١٣٥

الكذب المرفوض ١٣٧

مع دراسة علمية لقضية الحسين عليه السلام ١٣٨

الرجوع إلى المصادر الموثوقة.....	١٣٨
قليل الحق يكفي من كثير الباطل.....	١٣٨
المطلوب صورة حقيقية للحسين عليه السلام	١٣٩
تبّعات التسامح في النصوص.....	١٣٩
مسؤولية التغيير.....	١٤١
تحديد الهدف.....	١٤٣
الذهنية البكائية.....	١٤٣
شجاعة الحسين عليه السلام	١٤٥
النموذج الزينبي.....	١٤٦
متى قاتل الحسين عليه السلام ٩.....	١٤٨
التزام شعار الإصلاح.....	١٤٨
المفاهيم القلقة الدخيلة.....	١٤٩
الخيال في إطار القضية.....	١٥٤
تجديد الشعر الحسيني.....	١٥٨
المعاناة الثقافية.....	١٥٩
للخطابة أصول وشروط.....	١٦٠
لنتقّف الأسلوب في التعبير.....	١٦٠
أساليب الاحتفال بالذكرى.....	١٦٢
الاقتداء بزینب الكبرى.....	١٦٣
طفل حتى في الخمسين.....	١٦٣
الانطلاق من وعي زينب للقضية.....	١٦٤
دور المرأة في الإصلاح.....	١٦٥
الأساليب الدخيلة في إحياء الذكرى.....	١٦٧
نظرة فقهية.....	١٦٧
التأثير السلبي للعادات المتخلفة.....	١٧٠
المشي على النار.....	١٧١
الغوغاء في مواجهة المصلحين.....	١٧٢
خاتمة.....	١٧٥



المركز الإسلامي الشيعي
مجمع الإمامين الحسنين عليه السلام